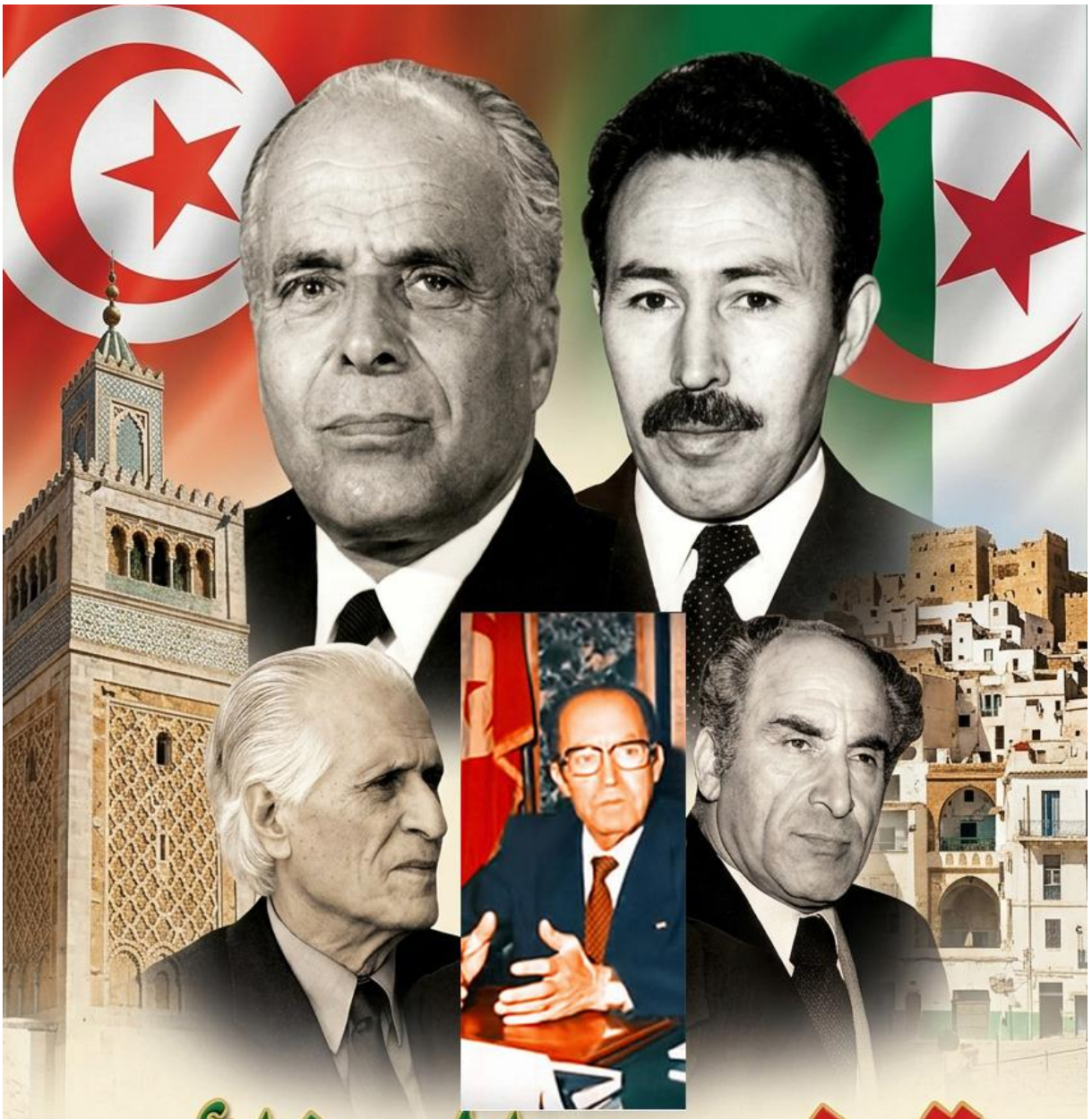
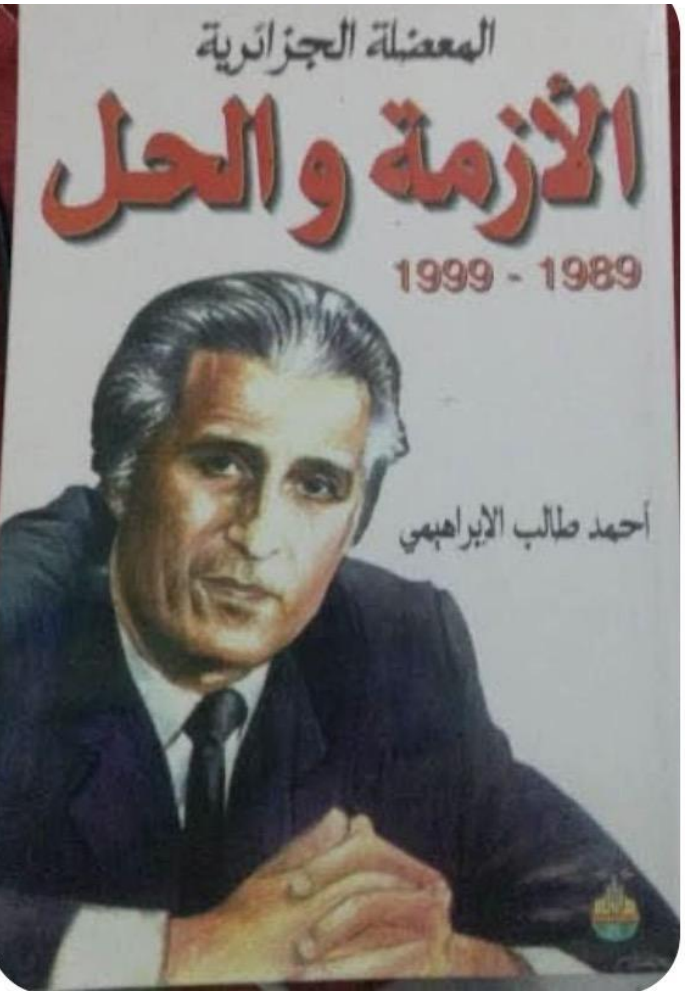
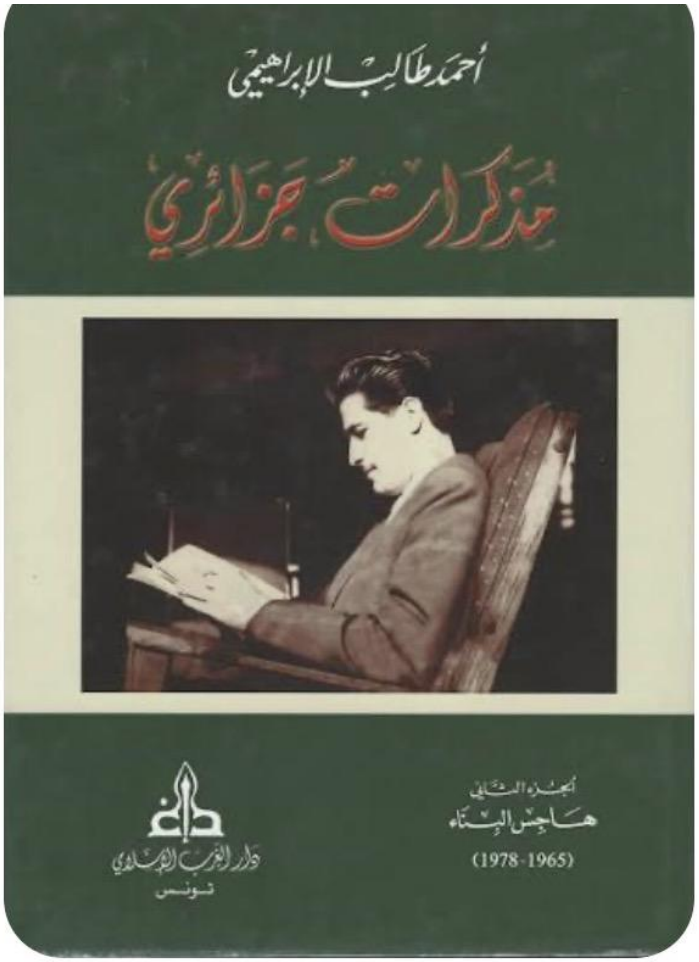


تونس و الجزائر

من الإصلاح إلى المقاومة و بناء الدولة

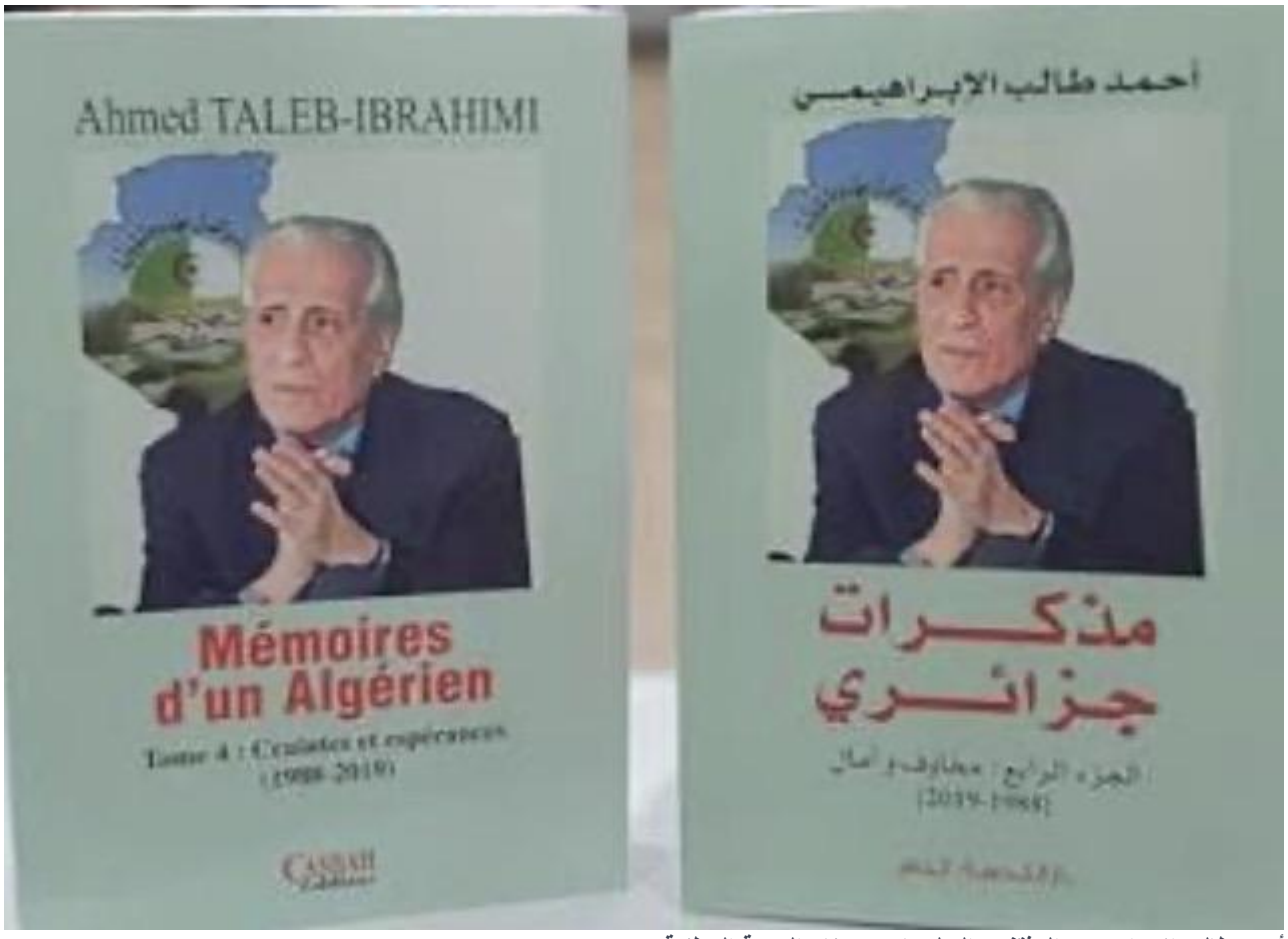
تأليف: كمال بن يونس


المعضلة الجزائرية
الأزمة والحل
1999 - 1989
أحمد طالب الإبراهيمي


أحمد طالب الإبراهيمي
مذكرات جزائري
الجزء الثاني
هاجس البناء
(1978-1965)
دار الغرب الإسلامي
تونس



احمد طالب الإبراهيمي المفكر والكاتب ووزير التربية والثقافية والخارجية ثم المعارض السياسي بعد 1988



أحمد طالب الإبراهيمي: المثقف والدبلوماسي وبناء الهوية الوطنية

من معركة التحرر من الاحتلال إلى معارك الاستقلالية الثقافية وسيادة قرارات الدولة

+مفهوم السيادة الوطنية المدخل الأهم لفهم فكر احمد طالب الإبراهيمي و رفاقه

+تاثر بوالده وقيادات جمعية العلماء المسلمين و بالمدارس الغربية التحديثية

+تأقلم مع المتغيرات في عهدي هواري بومدين و الشاذلي بن جديد ثم بعد انتفاضة الشباب والشعب في 1988

بقلم الأستاذ كمال بن يونس
الأكاديمي والإعلامي والباحث في التاريخ والعلاقات الدولية



ملخص

تتناول هذه الورقة المسار الفكري والسياسي والدبلوماسي للدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، باعتباره واحدًا من أبرز ممثلي النخبة الجزائرية التي انتقلت من مقاومة الاستعمار إلى بناء الدولة الوطنية بعد الاستقلال.
وتحاول الدراسة تجاوز القراءة البيوغرافية التقليدية التي تختزل الرجل في المناصب الوزارية التي شغلها، لتبحث في الخيط الفكري الناظم بين تجربته في الحركة الوطنية، ومسؤوليته عن قطاعي التربية والثقافة، ثم توليه وزارة الخارجية، وكتاباته الفكرية ومذكراته السياسية والدبلوماسية.

وتنطلق الدراسة من فرضية مفادها أن مفهوم السيادة يمثل المدخل الأهم لفهم مشروع أحمد طالب الإبراهيمي: السيادة على الذاكرة واللغة والثقافة في الداخل، واستقلال الإرادة والقرار في الخارج.

كما تناقش الدراسة بصورة نقدية تجربة التعريب، وعلاقة الإبراهيمي بمرحلة هواري بومدين، وتحولات الدولة في عهد الشاذلي بن جديد، ثم موقع مذكراته وكتاباته الدبلوماسية كمصادر لفهم تاريخ الجزائر المعاصر.

المقدمة : رجل في تقاطع الثقافة والسياسة والدبلوماسية

يصعب اختزال الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي في صفة واحدة. فهو طبيب بالتكوين، ومثقف بالانتماء، ومناضل في الحركة الوطنية، ورجل دولة مارس المسؤولية في مواقع شديدة الحساسية، ودبلوماسي مثّل الجزائر في مرحلة اتسمت بصراعات الحرب الباردة والأزمات العربية والأفريقية، ثم أصبح بعد خروجه من الحكم شاهدًا وناقدًا وكاتب مذكرات.

احمد طالب الإبراهيمي ووالده الزعيم الوطني الشيخ البشير الإبراهيمي

ولد أحمد طالب الإبراهيمي في الخامس من يناير 1932، ونشأ في بيت الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، أحد كبار رجال الإصلاح الوطني وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ودرس الطب في الجزائر ثم في باريس، وأسهم في شبابه في إصدار صحيفة «الشاب المسلم – Le Jeune Musulman» باللغة الفرنسية، وانخرط في الحركة الطلابية الوطنية، وكان من الشخصيات المؤسسة للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين سنة 1955، قبل اعتقاله من السلطات الفرنسية وقضائه سنوات في السجن خلال حرب التحرير.

وبعد الاستقلال، انتقل الرجل من زمن مقاومة الدولة الاستعمارية إلى زمن بناء الدولة الوطنية. فتولى وزارة التربية الوطنية بين 1965 و1970، ثم وزارة الإعلام والثقافة بين 1970 و1977، قبل أن يصل إلى وزارة الشؤون الخارجية

التي تولاها بين 1982 و1988. وهي محطات تؤكدها الفهارس المرجعية للمكتبة الوطنية الفرنسية ووثائق العلاقات الخارجية الأمريكية المعاصرة لتلك المرحلة.

لكن أهمية هذا المسار لا تكمن في تعدد الوظائف بقدر ما تكمن في وجود استمرارية فكرية عميقة بينها.

ففي التربية كان السؤال: كيف نعيد بناء الإنسان الجزائري بعد الاستعمار؟

وفي الثقافة: كيف نستعيد الذاكرة والشخصية الوطنية؟

وفي الدبلوماسية: كيف تعبر الدولة الجزائرية المستقلة عن هذه الشخصية في علاقاتها الدولية، من دون الارتهان لقوة كبرى أو محور خارجي؟

ومن هنا تطرح هذه الدراسة إشكالية مركزية:

إلى أي مدى شكّل فكر أحمد طالب الإبراهيمي حول الهوية والتحرر الثقافي أساسًا لرؤيته للدولة ولسياسة الجزائر الخارجية؟ وهل نجح في التوفيق بين الأصالة والحداثة، وبين المرجعية الوطنية ومتطلبات الدولة الحديثة؟

أولًا: التكوين الفكري بين مدرسة البشير الإبراهيمي والعصر الحديث

كان انتماء أحمد طالب الإبراهيمي إلى بيت الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أكثر من مجرد نسب عائلي؛ لقد كان انتماءً إلى مدرسة فكرية كاملة.

فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم تنظر إلى الاستعمار الفرنسي باعتباره مجرد احتلال سياسي وعسكري للأرض، وإنما باعتباره أيضًا مشروعًا لإعادة تشكيل المجتمع واللغة والذاكرة والثقافة. ولذلك وضعت التعليم والإصلاح الديني وإحياء العربية وبناء الوعي التاريخي في صميم مقاومتها.

نشأ أحمد طالب في هذا المناخ، لكنه لم يتكون داخل الثقافة العربية الإسلامية وحدها. فقد درس العلوم والطب، وأتقن الفرنسية، وعاش في فرنسا، واحتك بالنخب الفكرية والسياسية الأوروبية.

وهنا تظهر إحدى السمات الأساسية في شخصيته: فهو لم يكن يرى ضرورة حماية الهوية الوطنية باعتبارها دعوة إلى الانغلاق على العالم الحديث.

تكشف تجربة «الشاب المسلم» هذه الثنائية بوضوح. فقد كانت الصحيفة تصدر باللغة الفرنسية وتخاطب فئة من الشباب الجزائري المتعلم في المنظومة الاستعمارية، بهدف إعادة ربطها بتاريخها ودينها ومجتمعها، مع تشجيعها في الوقت ذاته على الانفتاح على التطور والعصرنة.

إننا نجد هنا، مبكرًا، ما سيصبح لاحقًا إحدى معادلات فكر طالب الإبراهيمي:

الانفتاح من دون ذوبان، والأصالة من دون انغلاق.

فالمشكلة بالنسبة إليه لم تكن في تعلم الفرنسية أو في الاستفادة من الفكر والعلم الغربيين. فهو نفسه طبيب تكوّن جزئيًا داخل المؤسسات الفرنسية. المشكلة كانت في تحول أداة المعرفة إلى مصدر للاستلاب، وفي أن ينظر الجزائري إلى نفسه وتاريخه من خلال رؤية الآخر وحده.

ومن ثم كان مفهوم «الاستلاب» الثقافي حاضرًا بقوة في جيله.

لقد كان تحرير الأرض ضروريًا، لكنه لا يكفي إذا بقي الإنسان المستقل سياسيًا تابعًا في تمثلاته الثقافية وفي نظرته إلى ذاته.

ثانيًا: من التحرير السياسي إلى «تصفية الاستعمار الثقافي»

يقدم كتاب أحمد طالب الإبراهيمي «من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962–1972»أحد أوضح المفاتيح النظرية لفهم مشروعه.

فالكتاب، الذي ظهرت نسخته العربية سنة 1972 بترجمة الدكتور حنفي بن عيسى، يجمع نصوصًا تدور حول تصفية الاستعمار الثقافي، والتعليم والعلم، والنهضة في العالم الإسلامي والمغرب العربي، وموقع اللغة العربية في الجزائر المستقلة.

العنوان في حد ذاته بالغ الدلالة.

فتصفية الاستعمار ليست، في تصور طالب الإبراهيمي، عملية إدارية تنتهي بخروج الجيش الفرنسي ورفع العلم الجزائري في الخامس من يوليو 1962.

فالاستعمار الطويل يترك مؤسسات وعادات وأنماط تفكير وتفاوتات ثقافية ولغوية تستمر بعد الاستقلال.

ولهذا يصبح المطلوب بعد تحرير الإقليم تحرير الإنسان من آثار العلاقة الاستعمارية.

ومن هذا المنظور ظهرت فكرة «الثورة الثقافية»باعتبارها الوجه الآخر للاستقلال السياسي.

كان الرهان هو تكوين جزائري ينتمي إلى عصره، ولكنه لا يعيش حالة قطيعة مع تاريخه.

ويمكن قراءة رؤية طالب الإبراهيمي للهوية ضمن أربعة أبعاد مترابطة:

العروبة بما هي انتماء لغوي وحضاري؛ الإسلام بما هو مكوّن تاريخي وقيمي؛ الوطنية الجزائرية المرتبطة بتجربة المقاومة والثورة؛ ثم الانفتاح على العلم والحداثة.

بهذا المعنى لم يكن مشروع الهوية عنده مجرد احتفاء بالماضي، وإنما محاولة لصنع أساس ثقافي للدولة الجديدة.

ثالثًا: المدرسة باعتبارها مؤسسة لصناعة الاستقلال

عندما تولى أحمد طالب الإبراهيمي وزارة التربية الوطنية سنة 1965 لم يعد يتحدث عن الثقافة من موقع المفكر وحده، وإنما أصبح مطالبًا بتحويل الأفكار إلى سياسات ومؤسسات.

وهنا بدأت أصعب مراحل تجربته.

فالجزائر الخارجة من استعمار استيطاني طويل كانت تواجه نقصًا كبيرًا في الإطارات والكوادر التعليمية، إلى جانب الحاجة إلى تعميم الدراسة وبناء آلاف الأقسام والمؤسسات وتكوين المدرسين والأساتذة.

وكان هناك في الوقت نفسه سؤال لغوي وسياسي شديد الحساسية: ما لغة المدرسة الجزائرية المستقلة؟

إن قراءة هذه القضية خارج سياقها التاريخي توقع الباحث في الكثير من الأحكام المتسرعة.

فالتعريب لم يبدأ باعتباره رفضًا للغات الأجنبية، وإنما ارتبط بالنسبة إلى جزء كبير من نخبة الحركة الوطنية باستعادة لغة جرى تهميشها خلال الحقبة الاستعمارية، وتحويلها مجددًا إلى لغة للتعليم والإدارة والثقافة.

وتؤكد دراسات تاريخ السياسة اللغوية في الجزائر أن التعريب بعد الاستقلال ارتبط فعلًا بمشروع أوسع لبناء الهوية الوطنية وإعادة العربية إلى موقع مركزي في المدرسة والدولة، مع ظهور صعوبات مرتبطة بالتطبيق والموارد البشرية والتعدد اللغوي للمجتمع.

من هذه الزاوية كان طالب الإبراهيمي ينظر إلى التعريب باعتباره جزءًا من السيادة الثقافية.

فإذا كانت الدولة قد استعادت العلم والحدود والجيش والمؤسسات، فإنها مطالبة، في نظره، بأن تستعيد كذلك قدرتها على تكوين أجيالها بلغتها الوطنية.

رابعًا: التعريب بين الشرعية التاريخية وإشكالات التطبيق

غير أن الدراسة الأكاديمية الجادة لا ينبغي أن تتحول إلى دفاع غير نقدي عن سياسات مرحلة معينة.

فإذا كانت للتعريب شرعية تاريخية مفهومة في سياق تصفية آثار الاستعمار، فإن التطبيق أنتج تحديات وتناقضات ظهرت مع مرور السنوات.

أول هذه التحديات أن المجتمع الجزائري لم يكن أحادي اللغة.

فالجزائر تجمع العربية الفصحى والعربية الجزائرية واللغات الأمازيغية، كما بقيت الفرنسية حاضرة في مجالات واسعة من الإدارة والاقتصاد والتعليم العالي والتقنيات.

وقد أظهرت الدراسات اللاحقة أن السياسات اللغوية المركزية لم تستطع إلغاء هذا التعدد الواقعي، وأن العلاقة بين العربية والفرنسية والأمازيغية ظلت جزءًا من النقاش السياسي والاجتماعي الجزائري .



جانب من ندوة تكريم تونسية جزائرية للمفكر والوزير السابق احمد طالب الإبراهيمي في تونس في مقر موسسة التميمي للأبحاث والدراسات بحضور سفير الجزائر بتونس واعضائه وجامعيين ومثقفين تونسيين وجزائريين

وهنا ينبغي الفصل بين أمرين كثيرًا ما يختلطان في النقاش العام:

أولًا، حق الجزائر في استعادة العربية وترقيتها بعد الاستعمار.

وثانيًا، تقييم الوسائل والوتيرة والسياسات التي استُخدمت لتحقيق ذلك الهدف.

من المشروع اليوم نقد جوانب من تجربة التعريب، سواء في مجال تكوين المعلمين أو الانتقال بين مراحل الدراسة أو العلاقة بين لغة التعليم الجامعي وسوق العمل.

لكن من غير المنصف تاريخيًا تحميل وزير التربية والتعليم والثقافة أحمد طالب الإبراهيمي وحده مجمل نتائج السياسة اللغوية التي تعاقبت عليها حكومات ووزراء ومؤسسات طوال عقود.

كما أن صورة الإبراهيمي باعتباره منغلقًا على العربية وحدها تحتاج إلى شيء من التصحيح.

ففي وثيقة دبلوماسية أمريكية تسجل حديثًا له سنة 1983، تحدث وزير الخارجية الجزائري احمد طالب الإبراهيمي عن حاجة بلاده إلى إعداد جزائريين يستطيعون التعامل براحة مع العربية والفرنسية والإنجليزية، ودعا إلى تطوير التبادل التعليمي وإرسال مدرسين للإنجليزية إلى الجزائر.

وهذه الإشارة مهمة لأنها تكشف أن تصوره للسيادة اللغوية لم يكن، على الأقل في هذه المرحلة من تطوره، مرادفًا للأحادية اللغوية المطلقة.

خامسًا: المثقف في دولة بومدين – بين المشروع الوطني ومركزية السلطة

ارتبط جزء أساسي من المسار الحكومي لأحمد طالب الإبراهيمي بمرحلة الرئيس هواري بومدين.

وقد اختار للجزء الثاني من مذكراته عنوانًا ذا دلالة: «La passion de bâtir – شغف البناء، 1965–1978».

لم يكن اختيار كلمة «البناء» اعتباطيًا.

فالجيل الذي انتصر في حرب التحرير وجد نفسه بعد 1962 أمام تحدٍّ أكثر تعقيدًا: إنشاء مؤسسات دولة حديثة، وبناء اقتصاد، ومدرسة، وجامعة، وإدارة، وسياسة ثقافية.

وكانت دولة بومدين تنطلق من تصور قوي للدولة المركزية باعتبارها أداة للتنمية والتحول الاجتماعي.

وجد طالب الإبراهيمي نفسه داخل هذا المشروع، مسؤولًا أولًا عن التعليم ثم عن الإعلام والثقافة. وتشير السجلات المرجعية إلى تسلسله الوزاري من التربية الوطنية بين 1965 و1970 إلى الإعلام والثقافة بين 1970 و1977

لكن هذه التجربة تطرح سؤالًا أكبر من سيرة الرجل ذاته:

ما حدود دور المثقف عندما يدخل جهاز الدولة؟

يملك المثقف في الوزارة أدوات تنفيذ لم تكن متاحة له وهو خارج السلطة، لكنه يصبح في المقابل شريكًا في خيارات النظام ومسؤولًا، بدرجات متفاوتة، عن نتائجه.

وبالتالي لا يمكن تقديم طالب الإبراهيمي في هذه المرحلة بوصفه مجرد مفكر يطبق تصورات ثقافية محايدة.

لقد كان جزءًا من نظام سياسي شديد المركزية، وفي سياق الحزب الواحد، وكانت الدولة تتولى تحديد مساحات واسعة من العمل الثقافي والإعلامي والسياسي.

ولهذا فإن قيمة مذكراته عن مرحلة بومدين كبيرة، لكنها تحتاج دائمًا إلى القراءة المقارنة.

إنه شاهد وفاعل في آن واحد.

وهذه ميزته كمصدر، وهي أيضًا حدّه المنهجي.

سادسًا: من الهوية الداخلية إلى السيادة الخارجية

يبدو للوهلة الأولى أن الانتقال من التعليم والثقافة إلى وزارة الخارجية يمثل تغييرًا جذريًا في المسار.

لكن التحليل الأعمق يكشف العكس.

فإذا كان سؤال الثقافة عند طالب الإبراهيمي هو استقلال الشخصية الوطنية، فإن سؤال الدبلوماسية أصبح استقلال إرادة الدولة.

تولى أحمد طالب الإبراهيمي وزارة الشؤون الخارجية من 1982 إلى 1988 في عهد الرئيس الشاذلي بن جديد.

وكانت الجزائر آنذاك تحمل إرثًا دبلوماسيًا كبيرًا تشكل منذ حرب التحرير وتعزز خلال عهد بومدين: دعم حركات التحرر، والدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها، والانخراط في حركة عدم الانحياز، والاهتمام بالقضايا الأفريقية والعربية، والبحث عن موقع مستقل إزاء المعسكرين الشرقي والغربي.

جاء طالب الإبراهيمي إلى الخارجية وهو يحمل الخلفية نفسها التي حكمت تفكيره الثقافي: الرفض المبدئي للتبعية.

وتوفر الوثائق الدبلوماسية الأجنبية دليلًا مهمًا على ذلك.

ففي أكتوبر 1982، وخلال لقاء مع وزير الخارجية الأمريكي، أكد الإبراهيمي تمسك الجزائر باستقلالها وعدم انحيازها، مع إبداء الرغبة في الوقت ذاته في توسيع العلاقات السياسية والاقتصادية مع الولايات المتحدة.

وهنا تظهر سمة مهمة في دبلوماسيته:

الاستقلال لا يعني القطيعة.

وعدم الانحياز لا يعني رفض التعامل مع القوى الكبرى.

بل يعني ألا يتحول التعاون معها إلى تبعية لها.

سابعًا: «ملاحظات دبلوماسية» ووثيقة مرحلة دولية

من الكتب الأساسية لفهم هذه المرحلة مجموعة « Notes diplomatiques: recueil d'articles et de discours, 1982-1988»، التي تجمع مقالات وخطبًا ومداخلات تعود إلى فترة توليه الخارجية.

وتشير الطبعة الحديثة إلى أن المجموعة تضم مساهماته في مجلة العلاقات الدولية الجزائرية، إضافة إلى خطاباته أمام سبع دورات للجمعية العامة للأمم المتحدة بين 1982 و1988 ومداخلة أمام مجلس الأمن.

وهنا ينبغي التمييز بين هذا الكتاب وبين المذكرات.

في المذكرات يستعيد الرجل الحدث بعد سنوات، وقد أعاد الزمن ترتيب ذاكرته وتقييمه للأشخاص والسياسات.

أما الخطاب الدبلوماسي المعاصر للحدث، فيسمح للباحث بمتابعة كيفية صياغة الجزائر لمواقفها في لحظتها التاريخية.

وتكشف هذه النصوص والوثائق عن مجموعة من المرتكزات.

أولها استقلال القرار الوطني.

وثانيها أن عدم الانحياز عند الجزائر لم يكن مساواة ميكانيكية بين جميع القضايا، وإنما مساحة للتحرك وفق المبادئ والمصالح الوطنية.

وثالثها استمرار الاهتمام بقضايا تصفية الاستعمار وحركات التحرر.

ورابعها النظر إلى السلام الدولي باعتباره مرتبطًا بالعدالة والتنمية، لا بمجرد التوازن العسكري بين القوى الكبرى.

ثامنًا: القضية الفلسطينية والدبلوماسية العربية

احتلت فلسطين موقعًا مركزيًا في التصور الدبلوماسي الجزائري الذي مثله أحمد طالب الإبراهيمي.

فالجزائر الخارجة من حرب تحرير طويلة كانت تنظر إلى القضية الفلسطينية من خلال خلفيتها التاريخية الخاصة.

وفي اجتماعات أكتوبر 1982 مع المسؤولين الأمريكيين، ركز وزير الخارجية الجزائري على مركزية القضية الفلسطينية في أي تسوية للشرق الأوسط، وعلى ضرورة الوصول إلى حل عادل ودائم، في سياق أعقب الاجتياح الإسرائيلي للبنان وقمة فاس العربية.

ما يهم هنا ليس إعادة سرد تفاصيل الموقف الجزائري بقدر ما يهم إبراز العلاقة بين ذاكرة التحرير وصياغة السياسة الخارجية.

فالذاكرة بالنسبة إلى هذه النخبة لم تكن مجرد احتفال سنوي بالماضي.

كانت مصدرًا لتصور موقع الجزائر في العالم.

دولة ولدت من حركة تحرر كان من الطبيعي أن ترى نفسها أقرب إلى شعوب وحركات تطالب بالاستقلال وتقرير المصير.

ومن هنا نفهم أيضًا المكانة التي احتلتها أفريقيا والعالم الثالث وحركة عدم الانحياز في الدبلوماسية الجزائرية.

تاسعًا: منطقة المغرب العربي بين المبادئ وضرورات الجوار

كان المغرب العربي واحدًا من أعقد ملفات أحمد طالب الإبراهيمي وزيرًا للخارجية.

فالجزائر والمغرب دولتان تجمعهما روابط تاريخية وإنسانية وجغرافية، لكن العلاقة بينهما ظلت مثقلة بالخلافات، وفي مقدمتها ملف الصحراء الغربية.

وتقدم الوثائق الأمريكية في الثمانينيات صورة مفيدة عن طريقة إدارة الإبراهيمي لهذا التناقض.

فقد كان يؤكد دعم الجزائر لمبدأ "تقرير المصير والاستفتاء في الصحراء الغربية، " وفي الوقت نفسه يعبّر عن رغبة الجزائر في تطوير الحوار والتعاون مع المغرب وإعطاء الأولوية لبناء علاقات مغاربية أفضل. هذه الثنائية تكشف أحد تحديات الدبلوماسية الجزائرية المستمرة:

كيف يمكن الجمع بين المبادئ المعلنة للسياسة الخارجية وبين ضرورات الجغرافيا والمصلحة الإقليمية؟

ولم يكن أحمد طالب الإبراهيمي يملك جوابًا سحريًا لهذه المعضلة، لكنه حاول إدارة التوتر بين الموقف المبدئي والحاجة إلى إبقاء قنوات الحوار مفتوحة.

وتظهر وثائق أخرى من الثمانينيات وجود أفكار ومحادثات حول صيغ للتقارب والتنسيق المغاربي، وهو ما يعكس إدراكًا لدى أطراف المنطقة بأن استمرار التوتر الجزائري المغربي يمثل عائقًا أمام بناء المغرب العربي.



NOTES DIPLOMATIQUES

Recueil d'articles et de discours (1982-1988)

Dr Ahmed Taleb-Ibrahimi

Préface
Ahmed Araf

HÉRITAGE
Éditions

عاشرًا: الدبلوماسية بين المبادئ والواقعية

من الخطأ كذلك النظر إلى دبلوماسية احمد طالب الإبراهيمي بوصفها استمرارًا آليًا لشعارات سبعينيات القرن الماضي.

كان العالم نفسه يتغير.

فالثمانينيات شهدت تفاقم أزمات اقتصادية، وتصاعد الحرب العراقية الإيرانية، وتعقيد النزاعات في الشرق الأوسط وأفريقيا، ثم بدأت ملامح تراجع النظام الدولي الثنائي القطبية تظهر تدريجيًا.

وكان على الجزائر أن تحافظ على رصيدها السياسي الذي راكمته في حركة عدم الانحياز والعالم الثالث، مع تطوير علاقات اقتصادية وتكنولوجية مع أوروبا والولايات المتحدة وغيرهما.

الوثائق الأمريكية نفسها تسجل أن الإبراهيمي تحدث عن تطوير العلاقات الاقتصادية مع واشنطن وعن الغاز والتعاون الزراعي والثقافي والتعليم، في الوقت الذي كان يؤكد فيه استقلال الجزائر السياسي .

ومن هنا يمكن وصف دبلوماسيته بأنها محاولة للجمع بين:

دبلوماسية المبادئ ودبلوماسية المصالح.

فالاستقلال السياسي لا قيمة له إذا أدى إلى عزلة دولية، مثلما أن العلاقات الاقتصادية لا ينبغي، في منطقه، أن تؤدي إلى التبعية.

الحادي عشر: المذكرات – سيرة فرد أم سيرة جيل ودولة؟

لا تكتمل دراسة أحمد طالب الإبراهيمي من دون التوقف عند مشروعه الكبير «مذكرات جزائري – Mémoires d'un Algérien».

فالمكتبة الوطنية الفرنسية تسجل السلسلة ضمن أعماله، كما تضم قائمة مؤلفاته «رسائل من السجن»، و«من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية»، و«المعضلة الجزائرية»، و«ملاحظات دبلوماسية»، فضلًا عن أجزاء المذكرات.

ويمكن قراءة الأجزاء الأربعة بوصفها بناءً سرديًا لمسيرة الفرد ولتحولات الدولة الجزائرية في آن واحد.

الجزء الأول: «Rêves et épreuves – أحلام ومحن، 1932–1965»

هو زمن التكوين والأسرة والحركة الإصلاحية والدراسة والنضال والسجون والثورة، ثم الصدمات الأولى للاستقلال.

هنا يبدو التاريخ الوطني تاريخًا مفتوحًا على الأمل، رغم المحن.

الجزء الثاني: «La passion de bâtir – شغف البناء، 1965–1978»

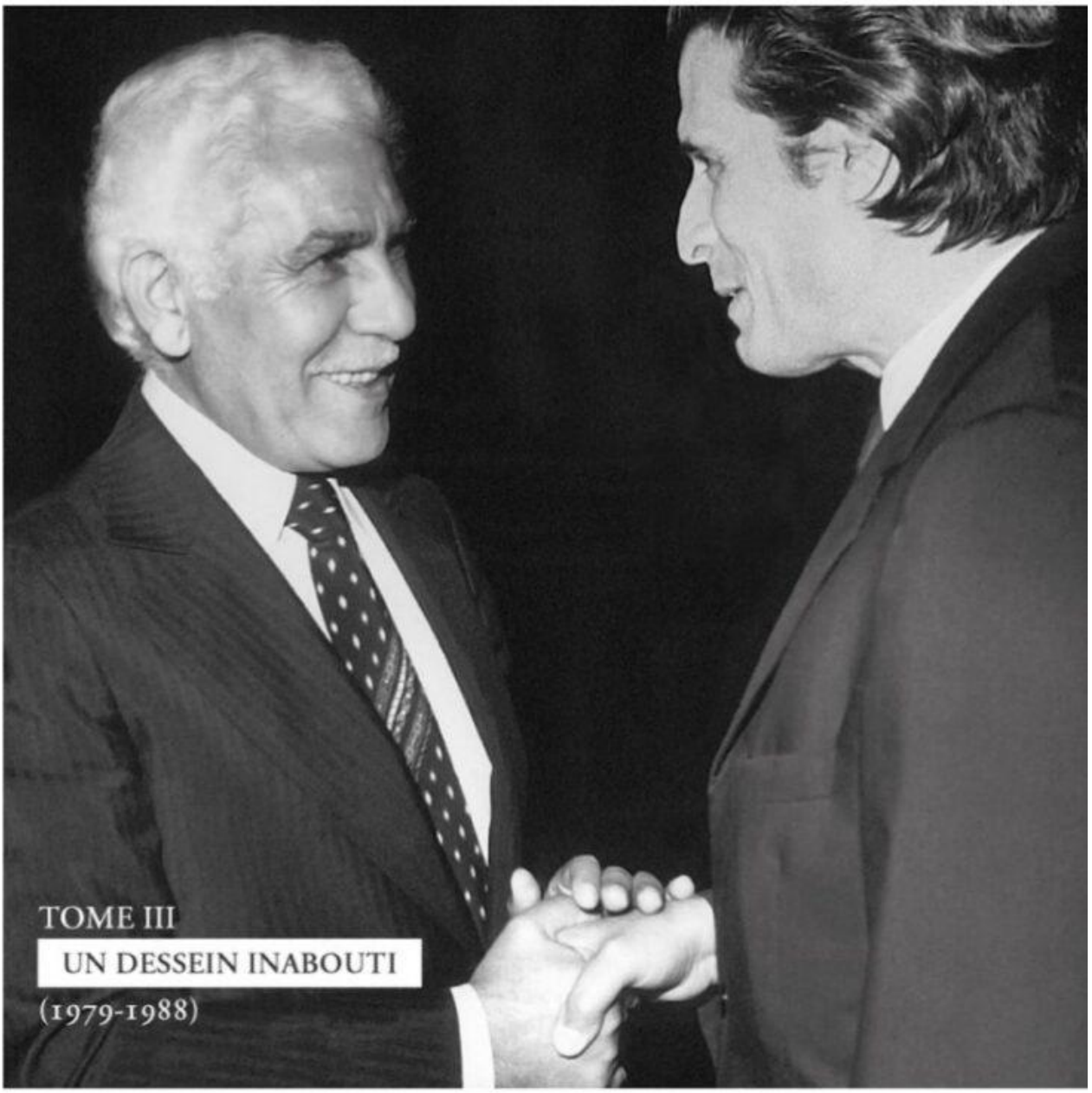
هو زمن الدولة البومدينية، وتوسيع المؤسسات والتعليم، وبناء سياسة ثقافية وطنية.

إنها مرحلة الثقة في قدرة الدولة على تغيير المجتمع.

الجزء الثالث: «Un dessein inabouti – مشروع لم يكتمل، 1979–1988»

يغطي مرحلة الشاذلي بن جديد، وصولًا إلى نهاية وجود الإبراهيمي في الحكومة سنة 1988. وتثبت الفهارس صدور الجزء تحت هذا العنوان والفترة الزمنية المحددة.

أما اختيار تعبير «مشروع لم يكتمل» فيوحي بأن الكاتب ينظر إلى التجربة من داخل شعور بأن مشروع جيل الاستقلال اصطدم بحدود الدولة والمجتمع والاقتصاد والسياسة.



MÉMOIRES D'UN ALGÉRIEN

Dr Ahmed Taleb-Ibrahimi

HÉRITAGE ÉDITIONS

الإبراهيمي مع الرئيس الشاذلي بن جديد

الجزء الرابع: «Craintes et espérances – مخاوف وآمال، 1988–2019»

يتناول المرحلة التي انتقل فيها الإبراهيمي من المسؤولية الحكومية إلى موقع الفاعل السياسي والشاهد والناقد، وصولًا إلى الحراك الشعبي سنة 2019. وتشير المصادر الببليوغرافية والصحفية إلى أن الجزء الرابع يغطي تحديدًا الفترة 1988–2019. (Vitaminedz)

وهكذا تبدو العناوين الأربعة شديدة التعبير:

أحلام ومحن → شغف البناء → مشروع لم يكتمل → مخاوف وآمال.

إنها ليست فقط عناوين أربعة كتب.

إنها تكاد تختصر الوعي التاريخي لجيل كامل.

الثاني عشر: كيف ينبغي للمؤرخ أن يقرأ مذكرات الإبراهيمي؟

المذكرات السياسية ليست كتاب تاريخ بالمعنى الأكاديمي الصارم.

وكل مذكرات هي بالضرورة عملية انتقاء.

فالكاتب يتذكر أشياء وينسى أخرى، ويعيد تقييم الأشخاص بعد أن يعرف نتائج الأحداث، وقد يسعى إلى الدفاع عن خياراته أو تفسير إخفاقاته.

وهذا ينطبق على أحمد طالب الإبراهيمي مثلما ينطبق على كل رجال الدولة الذين كتبوا سيرهم.

لكن هذا لا يقلل من القيمة التاريخية لمذكراته.

بل يحدد طريقة استخدامها.

فالمؤرخ لا يسأل فقط:

«هل ما يقوله صحيح أم خطأ؟»

بل يسأل أيضًا:

«لماذا اختار أن يتذكر الحدث بهذه الطريقة؟ وكيف يقدم نفسه ودوره وجيله؟ وما الذي تكشفه لغته عن تصور النخبة الحاكمة للدولة والهوية؟»

ومن هنا ينبغي وضع مذكراته في حوار مع مذكرات وشهادات شخصيات أخرى، ووثائق الإدارة الجزائرية، والأرشيفات الأجنبية، والصحافة، والدراسات التاريخية.

وتكشف مقارنة بعض مواقفه الدبلوماسية التي كتب عنها لاحقًا مع الوثائق الأمريكية المعاصرة للأحداث أن هناك مجالًا خصبًا لمثل هذه الدراسات المقارنة. الثالث عشر: الإسلام والوطنية والحداثة في المشروع الفكري للابراهيمي

لا يكفي وصف طالب الإبراهيمي بأنه «قومي عربي»، مثلما لا يكفي وصفه بأنه «إسلامي» أو مجرد «وطني».

لقد تشكل داخل مدرسة إصلاحية جزائرية كانت ترى أن الإسلام والعربية والوطنية ليست دوائر متصارعة بالضرورة.

فالهوية الجزائرية في تصوره تنتمي إلى عمق إسلامي وعربي، لكنها تشكلت كذلك عبر تجربة تاريخية جزائرية خاصة، وفي مقدمتها المقاومة والحركة الوطنية وحرب التحرير.

وفي الوقت نفسه، كان تكوينه العلمي والطبي يجعله مقتنعًا بأن استعادة الهوية لا يمكن أن تعوض العلم والتكنولوجيا.

ومن هنا يمكن اختصار مشروعه في معادلة ثلاثية:

هوية تحفظ الاستمرارية التاريخية، وعلم يتيح دخول العصر، وسيادة تمنع التبعية.

لكن هذه المعادلة نفسها تثير اليوم أسئلة جديدة.

فالهوية الجزائرية الرسمية والمجتمعية تطورت، وأصبحت الأمازيغية مكرسة دستوريًا كلغة وطنية ورسمية، كما أن المجتمع أكثر انفتاحًا على التعدد اللغوي والثقافي.

وهذا لا يلغي مشروع جيل طالب الإبراهيمي، لكنه يضعه داخل سياقه التاريخي ويجعل تجاوزه الجزئي امتدادًا طبيعيًا لتحول المجتمع.

الرابع عشر: حدود تجربة المثقف داخل السلطة

تسمح تجربة أحمد طالب الإبراهيمي بالتفكير في سؤال أوسع يتعلق بعلاقة الثقافة بالسلطة في الدولة الوطنية بعد الاستعمار.

لقد كان من أولئك المثقفين الذين آمنوا بأن الدولة يمكن أن تكون أداة كبرى للتحرير الاجتماعي والثقافي.

وهذه الفكرة كانت مفهومة في ستينيات القرن العشرين، حين كانت الدولة الوطنية في أفريقيا والعالم العربي تبدو المؤسسة الوحيدة القادرة على بناء المدرسة والجامعة والصناعة والإدارة.

لكن التجربة كشفت أيضًا حدود الدولة المركزية.

فعندما تحتكر السلطة السياسية تعريف الهوية والثقافة والمصلحة العامة، يصبح هناك خطر أن يتحول المشروع الثقافي من عملية إقناع وتفاعل اجتماعي إلى سياسة فوقية.

وهنا تقع المفارقة الأساسية في تجربة طالب الإبراهيمي.

فهو مثقف سعى إلى حماية الشخصية الجزائرية من استلاب القوة الاستعمارية، لكنه مارس جزءًا مهمًا من نشاطه داخل دولة حزب واحد لم تكن التعددية السياسية من خصائصها.

ومن ثم فإن تقييم مسيرته ينبغي أن يتجنب التقديس والتبخيس معًا.

لا يجوز اختزال الرجل في أخطاء النظام الذي عمل داخله.

ولا يجوز كذلك إعفاؤه من مسؤولية المشاركة في خيارات تلك المرحلة.

الخامس عشر: من رجل الدولة إلى المثقف الناقد

كان عام 1988 فاصلاً في التاريخ الجزائري وفي مسيرة الإبراهيمي.

خرج من وزارة الخارجية في السنة التي شهدت أحداث أكتوبر والتحولات التي مهدت للانتقال إلى التعددية الحزبية.

ومنذ ذلك الحين تغير موقعه تدريجيًا.

لم يعد رجلًا يتحدث باسم الدولة، بل شخصية سياسية وفكرية تقدم قراءتها لمسار الدولة.

ومن هنا ازدادت في كتاباته اللاحقة نبرة المحاسبة والسؤال عن حصيلة الاستقلال.

والسؤال المركزي أصبح:

هل الدولة التي بُنيت بعد 1962 حققت فعلًا المشروع الذي ضحى من أجله جيل الثورة؟

وهذا ما يعطي لعنوان الجزء الثالث «مشروع لم يكتمل» وللجزء الرابع «مخاوف وآمال» دلالتهما السياسية والفكرية.

فليس الأمر حنينًا بسيطًا إلى الماضي.

بل هو تعبير عن أزمة جيل وجد نفسه بعد عقود أمام واقع أكثر تعقيدًا مما تخيله لحظة الاستقلال.

بين الذاكرة الوطنية وضرورة النقد التاريخي

توفي أحمد طالب الإبراهيمي في الخامس من أكتوبر 2025 عن 93 عامًا، وقدمته المؤسسات الرسمية الجزائرية في بيانات التعزية باعتباره مجاهدًا ووزيرًا سابقًا وشخصية وطنية بارزة. (APS)

وبعد أقل من عام، في الخامس من يوليو 2026، دشنت السلطات الجزائرية بالرحمانية قطبًا حضريًا يحمل اسم «المجاهد الراحل أحمد طالب الإبراهيمي»، وهو ما يؤشر إلى انتقال شخصيته تدريجيًا من دائرة الفاعل السياسي المختلف حوله إلى دائرة الذاكرة الوطنية الرسمية. (APS)

لكن تخليد الأسماء لا ينبغي أن يحل محل دراستها.

فأفضل تكريم لشخصيات التاريخ ليس تحويلها إلى صور بلا تناقضات، وإنما فهمها داخل سياقها.

ويصدق ذلك بصورة خاصة على أحمد طالب الإبراهيمي، لأن تجربته مرتبطة بملفات لا تزال حاضرة في الجزائر:

اللغة.

والمدرسة.

والهوية.

والعلاقة بالاستعمار وذاكرته.

والسياسة الخارجية.

وعلاقة المثقف بالدولة.

خاتمة: السيادة الوطنية بوصفها "الخيط الناظم" للمشروع

إذا حاولنا بعد هذا المسار الطويل البحث عن مفهوم واحد يربط مراحل أحمد طالب الإبراهيمي المختلفة، فإن الأقرب هو مفهوم السيادة.

لقد عايش جيلًا بدأ معركته من أجل السيادة على الأرض.

ثم شارك بعد الاستقلال في معركة رأى أنها ضرورية من أجل السيادة على الثقافة والذاكرة واللغة.

وعندما أصبح وزيرًا للخارجية، انتقلت القضية إلى السيادة على القرار الدولي.

بهذا المعنى توجد وحدة فكرية حقيقية بين طالب الإبراهيمي وزير التربية وطالب الإبراهيمي وزير الثقافة وطالب الإبراهيمي وزير الخارجية.

فالاستقلال عنده ليس حدثًا وقع سنة 1962 وانتهى.

إنه عملية مستمرة.

لكن تجربة العقود اللاحقة أظهرت في الوقت نفسه أن السيادة الثقافية أكثر تعقيدًا من مجرد تغيير لغة الإدارة والتعليم، وأن الهوية الوطنية لا تبنى بالإجراءات الحكومية وحدها، وأن الحداثة لا تتحقق من دون التعدد والنقد وحرية الإنتاج الفكري.

كما أظهرت تجربته الدبلوماسية أن استقلال القرار لا يعني الانعزال عن العالم، وإنما يتطلب القدرة على التعامل مع القوى المختلفة من موقع المصلحة الوطنية.

وفي هذا الجانب ربما تكشف وثائق الثمانينيات إحدى أهم سمات الإبراهيمي: تمسكه بعدم الانحياز لم يمنعه من المطالبة بعلاقات اقتصادية وسياسية أفضل مع الولايات المتحدة، مثلما أن دفاعه عن العربية لم يمنعه من الحديث عن أهمية الفرنسية والإنجليزية في تكوين الجزائري الحديث.

وهذه الصورة المركبة أكثر دقة من الصور الأيديولوجية المبسطة التي يمكن أن يقدمها خصوم الرجل أو أنصاره.

لقد كان أحمد طالب الإبراهيمي ابنًا وفيًا لجيل الحركة الوطنية والإصلاحية، لكنه كان أيضًا رجل دولة واجه تناقضات الانتقال من الثورة إلى الحكم.

وكان مثقفًا حاول تحويل أفكاره إلى سياسات، فاكتشف مثل كثيرين أن بناء المجتمع أشد تعقيدًا من صياغة المبادئ.

وكان دبلوماسيًا حاول أن يجعل ذاكرة الثورة مصدرًا للقوة المعنوية في السياسة الخارجية من دون أن يحولها إلى عزلة عن موازين العالم.

ثم أصبح في آخر مراحل حياته شاهدًا على مشروع وطني راكم إنجازات كبيرة، لكنه ترك أسئلة كثيرة من دون إجابة.

ولعل أجمل ما تكشفه عناوين مذكراته الأربعة أنها ترسم وحدها مسار هذا الجيل:

أحلام ومحن، ثم شغف بالبناء، ثم مشروع لم يكتمل، وأخيرًا مخاوف وآمال.

إنها، في مستوى ما، سيرة أحمد طالب الإبراهيمي.

لكنها في مستوى أعمق سيرة الجزائر المستقلة نفسها: من نشوة التحرير إلى صعوبة البناء، ومن يقينيات الدولة الوطنية الأولى إلى أسئلة الهوية والديمقراطية والتنمية والموقع الدولي.

ولهذا لا ينبغي أن تكون قراءة أحمد طالب الإبراهيمي مناسبة لإغلاق النقاش حوله، وإنما لفتحه.

فالسؤال الذي طرحه جيله لا يزال قائمًا، وإن تغيرت شروطه:

كيف تستطيع القيادات الوطنية التي أنهت الاحتلال الأجنبي المباشر من بناء دولة حديثة قوية ومتطورة، منفتحة على العلوم واللغات والعالم، من دون أن تفقد استقلال قرارها وذاكرتها وشخصيتها الحضارية؟

وهنا تحديدًا تكمن القيمة المستمرة لقراءة أحمد طالب الإبراهيمي: ليس لأنه قدم الإجابة النهائية، بل لأنه كان من أبرز من عاشوا السؤال، وحاولوا تحويل إجابتهم عنه من فكرة إلى دولة، ومن ثقافة إلى سياسة، ومن ذاكرة وطنية إلى دبلوماسية.



تظاهرة تكريم تونسية جزائرية للمثقف و الديبلوماسي الجزائري الكبير احمد طالب الإبراهيمي وعرض كتبه في مؤسسة التميمي للدراسات والبحث العلمي بحضور مقربين منه وسفير الجزائر بتونس وثلة من الإعلاميين والمثقفين والديبلوماسيين التونسيين

مراجع مختارة

أولًا – مؤلفات أحمد طالب الإبراهيمي

1. أحمد طالب الإبراهيمي، من تصفية الاستعمار إلى الثورة الثقافية 1962–1972، ترجمة حنفي بن عيسى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972. وتثبت فهارس المكتبة الوطنية التونسية بيانات الكتاب الأساسية. (Bibliothèque Nationale تونس)
2. Ahmed Taleb-Ibrahimi, Lettres de prison, 1957–1961. وتثبت المكتبة الوطنية الفرنسية وجود طبعات متعددة وموسعة من العمل. (BnF Catalogue)
3. Ahmed Taleb-Ibrahimi, Mémoires d’un Algérien, الأجزاء المختلفة، الجزائر. وتوثق المكتبة الوطنية الفرنسية السلسلة وأجزاء منها. (BnF Catalogue)
4. Ahmed Taleb-Ibrahimi, Notes diplomatiques: recueil d’articles et de discours, 1982–1988, Héritage Éditions. (Google Books)

5. أحمد طالب الإبراهيمي، المعضلة الجزائرية: الأزمة والحل، دار الأمة. وتدرجه المكتبة الوطنية الفرنسية ضمن أعمال المؤلف. (BnF Catalogue)

ثانيًا – مصادر ودراسات مساعدة

6. Bibliothèque nationale de France، الملف المرجعي لأحمد طالب الإبراهيمي، وفيه تاريخ الميلاد والمناصب الحكومية الأساسية وقائمة من مؤلفاته. (BnF Catalogue)
7. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، «أحمد طالب الإبراهيمي»، سيرة علمية تتناول دراسته ونشاطه الطلابي والصحفي والوطني وأعماله المنشورة. (مجمع اللغة العربية بالقاهرة)
8. Mohamed Benrabah, “Language-in-Education Planning in Algeria: Historical Development and Current Issues,” Language Policy, 2007، دراسة حول تاريخ السياسة اللغوية والتعريب في الجزائر. (ResearchGate)
9. Heather J. Sharkey, “Language and Conflict: The Political History of Arabisation in Sudan and Algeria,” Studies in Ethnicity and Nationalism, 2012. (Wiley Online Library)
10. Foreign Relations of the United States, 1981–1988, Volume XXIV: North Africa، وثائق وزارة الخارجية الأمريكية المتعلقة بمحادثات أحمد طالب الإبراهيمي والعلاقات الجزائرية الأمريكية والملفات الإقليمية.

10. (Office of the Historian)

مراجعات :

تاثير الثقافة والصحافة فاق تاثير الاحزاب في تونس والجزائر ؟

+ الثعالبي وبورقيبة والمسعدي ومزالي في تونس وابن باديس واحمد طالب الإبراهيمي وبومدين في الجزائر ..

++ مثقفون تزعموا المشهد في مرحلتي الكفاح الوطني وبناء الدولة الحديثة في تونس والجزائر

من شبكات الإصلاح والحركة الوطنية إلى سياسات التعليم والثقافة والإعلام، أواخر القرن التاسع عشر–1986

الصحافة بوابة النهضة والحركة الوطنية المغاربية

لا يمكن كتابة تاريخ الحركة الفكرية والأدبية والوطنية في تونس والجزائر، منذ أواخر القرن التاسع عشر وطوال القسم الأكبر من القرن العشرين، انطلاقًا من تاريخ الأحزاب والحكومات والمؤسسات السياسية وحدها.

فقبل أن تتشكل الأحزاب الوطنية الحديثة، وقبل أن تظهر الدول المستقلة ووزارات التربية والثقافة والإعلام، كانت الصحافة قد أصبحت واحدًا من أهم ميادين إنتاج الأفكار وتداولها، ومن أبرز المدارس التي تكون فيها جيل كامل من المصلحين والكتاب والشعراء والمناضلين. ولذلك فإن عددًا كبيرًا من رواد الإصلاح والحركات الأدبية والوطنية في تونس والجزائر والمغرب العربي كانوا صحفيين، أو أسسوا صحفًا ومجلات، أو كتبوا بانتظام في الصحافة العربية والفرنسية، أو استعملوا الصحيفة باعتبارها أداة للإصلاح والتعليم والتعبئة السياسية ومقاومة الاستعمار.

فضاء فكري أوسع من الحدود الوطنية

لم تكن هذه الظاهرة محصورة داخل الحدود التي ستصبح لاحقًا حدود الدول الوطنية المستقلة. فقد كانت تونس والجزائر، منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، جزءًا من فضاء ثقافي وسياسي متداخل تتحرك داخله العائلات والعلماء والطلبة والصحفيون والكتب والجرائد. وهنا برزت ادوار علماء ومصلحين بارزين مثل عبد العزيز الثعالبي وعبد الحميد بن باديس ونائبه ثم خليفته البشير الإبراهيمي والميلي الإبراهيمي والعربي التبسي ومالك بن نبي و الطاهر والفاضل بن عاشور ثم رواد اصلاح التعليم و قطاع الثقافة في مرحلة بناء الدولة الوطنية مثل احمد طالب الإبراهيمي في الجزائر ومحمود المسعدي ومحمد مزالي والبشير بن سلامة في تونس ..

وكان لبعض الشخصيات ذات الأصول الجزائرية أو ذات المسارات العابرة للحدود دور بالغ الأهمية في الحياة الفكرية والسياسية التونسية ثم الجزائرية والمغاربية.

وتقدم مسارات الشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحمد توفيق المدني، ثم مفدي زكرياء، نماذج واضحة لهذا التداخل؛ فهؤلاء لا يمكن وضعهم بسهولة داخل تاريخ وطني مغلق، لأن حياتهم الفكرية والصحفية والسياسية تشكلت في فضاء تونسي–جزائري–مغاربي أوسع.

وقد أصبحت الصحافة، في هذا السياق، مختبرًا مبكرًا لصياغة المفاهيم التي ستبني عليها الحركات الوطنية خطابها في العقود اللاحقة: الإصلاح والنهضة والحرية والدستور والتعليم والشخصية الوطنية والوحدة المغاربية والعروبة والإسلام والعدالة الاجتماعية ومقاومة الاستعمار.

ولم يكن الصحفي آنذاك صاحب مهنة منفصلة بالضرورة عن بقية أدواره؛ فقد يكون في الوقت نفسه مدرسًا أو فقيهًا أو شاعرًا أو مؤرخًا أو محاميًا أو مناضلًا حزبيًا. ومن هنا تداخل تاريخ الصحافة مع تاريخ الإصلاح الديني والتعليم والحركة الأدبية والنقابات والأحزاب الوطنية.

من تحرير الكلمة إلى بناء الدولة

إن تاريخ التحرر الوطني في تونس والجزائر كان، بهذا المعنى، تاريخًا لتحرير الكلمة وإنتاج مجال عام مغاربي جديد أيضًا. وقد سبقت الصحافة الدولة الوطنية في صناعة هذا المجال، ثم انتقل عدد من رجال الصحافة والفكر بعد الاستقلال من تحرير المقالات والمجلات إلى إدارة المدرسة والجامعة والإذاعة والتلفزيون ووزارات التربية والثقافة والإعلام، بل وإلى رئاسة الحكومة والبرلمان.

ومن هذه الزاوية تتصل مسارات عبد العزيز الثعالبي وأحمد توفيق المدني ومفدي زكرياء بجيل لاحق يمثله أحمد طالب الإبراهيمي وهواري بومدين في الجزائر، والحبيب بورقيبة ومحمود المسعدي ومحمد مزالي والبشير بن سلامة في تونس. وبين الجيلين تمتد استمرارية أساسية: الاعتقاد بأن التحرر السياسي لا ينفصل عن بناء الإنسان والثقافة والتعليم والإعلام، وأن مقاومة الاستعمار لا تنتهي بمجرد استرجاع السيادة، وإنما تستمر في معركة بناء الدولة الحديثة وتصفية أشكال التبعية الاقتصادية والثقافية والمعرفية.

أولًا: من الإصلاح إلى الحركة الوطنية ـــ الصحافة تصنع المجال المغاربي

الصحيفة وولادة الرأي العام الحديث*

لم يكن ظهور الصحافة الوطنية في المغرب العربي مجرد نتيجة للتحديث التقني الذي أدخلته المطابع الحديثة. فقد تزامن انتشارها مع تحول أعمق يتعلق بولادة مفهوم جديد للرأي العام. أصبح الكاتب قادرًا على مخاطبة جمهور لا يعرف أفراده شخصيًا، وأصبحت الجريدة تنقل الفكرة من المدينة إلى الأقاليم، ومن تونس إلى الجزائر، ومن القاهرة وبيروت إلى المغرب العربي، ومن باريس إلى النخب المغاربية التي تقرأ الفرنسية.

وكانت أهمية الصحافة كامنة في قدرتها على الجمع بين الخبر والتعليم والتعبئة والجدل الفكري. ولذلك أصبحت المدرسة والصحيفة والجمعية الثقافية حلقات متصلة داخل المشروع الإصلاحي.

الزيتونة والإصلاح والصحافة*

كان جامع الزيتونة في تونس واحدًا من أهم مراكز هذا المجال الثقافي. ولم يقتصر تأثير الزيتونيين على التعليم الديني، بل امتد إلى الصحافة والجمعيات والعمل الوطني. فقد أصبح عدد من خريجي الزيتونة أو المتصلين ببيئتها من الكتاب والصحفيين والمصلحين، وساهموا في نقل خطاب الإصلاح من الدرس التقليدي إلى المجال العام الحديث.

ومن هذه البيئة برز الشيخ عبد العزيز الثعالبي باعتباره واحدًا من الشخصيات التي جمعت بين الإصلاح والفكر والعمل الوطني والصحافة. وقد ارتبط نشاطه بالصحافة العربية وبالحركة

السياسية التي ستقود إلى تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي، وأصبحت الكتابة بالنسبة إلى هذا الجيل وسيلة لنقل الإصلاح من حلقات العلماء والنخب إلى جمهور أوسع.

وبذلك لم يعد الإصلاح قضية دينية أو تعليمية فقط، بل أخذ يتحول إلى خطاب سياسي حول المجتمع وحقوقه وعلاقته بالسلطة والاستعمار.

أحمد توفيق المدني: المثقف بين تونس والجزائر

تكشف تجربة أحمد توفيق المدني بصورة أوضح الطبيعة المغاربية لهذه الحركة. فقد ولد المدني في تونس سنة 1899 في أسرة جزائرية الأصل، وتكوّن سياسيًا وثقافيًا في تونس، وانخرط مبكرًا في حياتها السياسية والفكرية، قبل أن تبعده السلطات الفرنسية إلى الجزائر سنة 1925.

ولم يبدأ المدني بعد انتقاله إلى الجزائر حياة فكرية منفصلة عما سبقها، وإنما نقل معه الخبرة التي اكتسبها في تونس إلى المجال الجزائري. وأصبح حضوره بارزًا في الصحافة الجزائرية، ولا سيما في صحافة الحركة الإصلاحية وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكتب في «الشهاب» و«البصائر» وغيرهما، إلى جانب اهتمامه بالتاريخ والسياسة والشؤون المغاربية والدولية.

وهكذا تحول انتقال المدني من تونس إلى الجزائر إلى واحد من جسور التبادل الفكري والثقافي بين البلدين. ولم يكن المغرب العربي بالنسبة إليه مجرد مجموعة أقاليم متجاورة، بل مجالًا سياسيًا وثقافيًا مترابطًا تتحرك داخله الأفكار والشخصيات والقضايا.

الصحيفة العابرة للحدود

لم يكن المدني حالة منفردة. فقد كانت الصحافة التونسية تصل إلى القراء الجزائريين، كما كان الجزائريون يكتبون فيها. وكانت الإدارة الاستعمارية الفرنسية نفسها واعية بأهمية هذا التداول، ولذلك خضعت الصحافة العربية والجرائد القادمة من تونس إلى المراقبة والمنع في فترات مختلفة.

وكانت الجريدة التي تعبر الحدود تحمل معها أكثر من الأخبار؛ كانت تنقل المفردات السياسية والأفكار الإصلاحية وصور النضال وتجارب الشعوب الأخرى، وتخلق إحساسًا بأن قضايا تونس والجزائر والمغرب ليست منفصلة تمامًا بعضها عن بعض.

مفدي زكرياء: من الزيتونة والصحافة إلى شعر الثورة

وفي هذا المناخ تشكل مفدي زكرياء. فقد ارتبط جزء من تكوينه بتونس، ودرس في مؤسساتها التعليمية، ومنها الزيتونة، واحتك بأوساطها الأدبية والثقافية، قبل أن يصبح لاحقًا واحدًا من أبرز الأصوات الأدبية للحركة الوطنية والثورة الجزائرية.

ولم يكن مفدي شاعرًا فحسب؛ فقد كانت الصحافة جزءًا مهمًا من نشاطه الفكري والسياسي. وتشير الدراسات إلى دخوله مبكرًا عالم الصحافة، وإلى إدارته تحرير صحيفة «الحياة» التي أصدرتها جمعية الوفاق، فضلًا عن مساهماته المتعددة في الصحافة الجزائرية والتونسية. وهكذا تداخل في تجربته الشعر بالمقال السياسي والعمل الوطني.

وكان هذا التداخل بين الأدب والصحافة والسياسة من سمات جيل كامل. فالنص الشعري لم يكن بعيدًا عن المعركة الوطنية، والمقال لم يكن مجرد تعليق على الأحداث، بل كان وسيلة للتعبئة وصناعة الوعي.

ومن هذه المرحلة المبكرة يمكن الحديث عن نشوء مجال عام مغاربي سبق الدول الوطنية، وكانت الصحافة واحدة من أهم مؤسساته إلى جانب الزيتونة والصادقية وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ونوادي الإصلاح والجمعيات الطلابية وشبكات الهجرة والتعليم في فرنسا والمشرق.

ثانيًا: من الصحافة الوطنية إلى صحافة التحرير — تونس والثورة الجزائرية

الخمسينيات وتحول المجال الإعلامي المغاربي

بلغ هذا التداخل مرحلة جديدة في الخمسينيات. فقد دخلت تونس المرحلة الأخيرة من صراعها ضد الحماية الفرنسية، بينما بدأت الجزائر حرب التحرير في نوفمبر 1954. وفي تلك اللحظة تحولت تونس تدريجيًا من فضاء للنشاط الوطني التونسي إلى إحدى القواعد السياسية والإعلامية والثقافية المهمة للقضية الجزائرية.

وكان الإعلام أحد أكثر المجالات التي ظهر فيها هذا التحول وضوحًا، لأن الثورة الجزائرية لم تكن بالنسبة إلى قطاعات واسعة من الصحافة والرأي العام التونسي قضية خارجية بالمعنى التقليدي، وإنما امتدادًا لمعركة التحرر المغاربي.

«الصباح»: من القضية التونسية إلى القضية المغاربية

كان تأسيس صحيفة «الصباح» سنة 1951 جزءًا من هذه المرحلة. فقد ظهرت في سنوات تصاعد الحركة الوطنية التونسية والمغاربية ، لكنها لم تحصر اهتمامها داخل القضايا المحلية. ومنذ سنواتها الأولى كانت قضايا المغرب العربي حاضرة في صفحاتها، ثم أصبحت الثورة الجزائرية موضوعًا مهمًا في تغطيتها بعد 1954.

ولم يكن الأمر مجرد تعاطف تحريري مع شعب مجاور، وإنما كان تعبيرًا عن تصور يعتبر التحرر التونسي والجزائري جزءًا من حركة تاريخية مغاربية أوسع.

وتزداد دلالة تجربة «الصباح» عندما ننظر إلى العاملين فيها. فقد عمل في الصحيفة عدد من الصحفيين الجزائريين، وكان محمد الميلي الإبراهيمي من الشخصيات الجزائرية التي شغلت موقعًا مهمًا داخل هيئة تحريرها. وهكذا أصبحت الصحيفة التونسية مكانًا يكتب فيه الجزائري عن الجزائر للقارئ التونسي والمغاربي والعربي.

تونس قاعدة إعلامية للثورة الجزائرية

في المقابل أصبحت تونس مقرًا لجزء مهم من النشاط الإعلامي لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، وانتقلت صحيفة «المجاهد» و" اذاعة الثورة الجزائرية " إلى تونس خلال الحرب.

وبذلك التقت في العاصمة التونسية صحافة وطنية تونسية تدافع عن الثورة الجزائرية، وصحافة جزائرية ثورية تصدر من تونس، وصحفيون جزائريون يعملون داخل مؤسسات إعلامية تونسية.

وتكشف هذه الظاهرة أن الحدود السياسية لم تكن حدودًا ثقافية وإعلامية صلبة. فقد أصبحت تونس خلال سنوات الثورة إحدى عقد الشبكة الإعلامية الجزائرية، كما أصبحت القضية الجزائرية جزءًا من المجال العام التونسي.

العربية والفرنسية في خدمة القضية الوطنية

لم يكن الإعلام العربي وحده حاضرًا في هذه المعركة. فقد استعملت الحركات الوطنية المغاربية الفرنسية كذلك لمخاطبة قطاعات من النخب المحلية والرأي العام الفرنسي والأوروبي والدولي.

وهذا الاستخدام يفرض الابتعاد عن القراءة التي تجعل العربية آليًا لغة التحرر والفرنسية آليًا لغة الاستعمار. فالفرنسية، التي كانت أداة من أدوات السيطرة الاستعمارية، أصبحت أيضًا أداة استعملها الوطنيون لمناقشة فرنسا بلغتها ومخاطبة مجتمعها وكشف التناقض بين المبادئ الجمهورية المعلنة وممارسات الاستعمار.

وهذه المفارقة اللغوية ستصبح بعد الاستقلال واحدة من أعقد قضايا بناء الدولة. فما كان أداة مفيدة في مقاومة الاستعمار سيصبح موضوعًا للخلاف عندما يتعلق الأمر بتحديد لغة المدرسة والجامعة والإدارة والإعلام الوطني.

»الفكر»: من معركة الاستقلال إلى سؤال المجتمع الجديد

في خضم هذه التحولات ظهرت مجلة «الفكر» في تونس في أكتوبر 1955. ولم تكن ولادتها، عشية الاستقلال التونسي وفي قلب الثورة الجزائرية، حدثًا ثقافيًا منفصلًا عن محيطه.

فقد كانت تعبيرًا عن انتقال جزء من النخبة من السؤال المتعلق بكيفية الحصول على الاستقلال إلى سؤال آخر: أي مجتمع وأي ثقافة وأي إنسان ينبغي أن تنتجه دولة الاستقلال؟

وهنا يتكامل دور «الفكر» مع دور الصحافة اليومية. فإذا كانت «الصباح» تتابع الحدث السياسي وتدخل يوميًا في معركة الرأي العام، فإن «الفكر» أتاحت مساحة أوسع لمناقشة الأدب والفلسفة واللغة والتراث والتعريب والحداثة.

وكان حضور الجزائر وقضيتها وكتابها في صفحاتها امتدادًا ثقافيًا للتداخل السياسي والإعلامي الذي عرفته مرحلة الثورة.

ثالثًا: جيل بين الزيتونة والصادقية وباريس ـــ من المثقف إلى مهندس الدولة

تعدد مؤسسات التكوين

كان وراء هذه الصحافة جيل تشكل في مؤسسات متعددة، وهذه المسألة أساسية لفهم طبيعة المشاريع التي سيحاول تطبيقها بعد الاستقلال.

لم يكن هذا الجيل نتاج مؤسسة تعليمية واحدة. فقد تشكل بعض أفراده في الزيتونة والصادقية والمدارس الإصلاحية، وتخرج آخرون من الجامعات الفرنسية، بينما جمع عدد منهم بين المسارين. وكانت هناك كذلك القاهرة والأزهر، والحركات الطلابية في باريس، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين وغيرها من الشبكات.

بورقيبة والمسعدي ومزالي: التكوين التونسي المتعدد

مر الحبيب بورقيبة بالصادقية والتعليم الفرنسي قبل دراسة القانون والعلوم السياسية في باريس. وبدأ محمود المسعدي من التعليم القرآني والصادقية ثم درس العربية وآدابها في السوربون. أما محمد مزالي فمر بالصادقية قبل دراسة الفلسفة في باريس.

ولا تعني هذه المسارات أن هؤلاء تبنوا تصورًا واحدًا للثقافة أو التعليم. لكنها تكشف أنهم عرفوا مؤسسات المعرفة الأوروبية من الداخل، مثلما كانوا أبناء بيئة وطنية عربية وإسلامية ومغاربية.

ومن هنا لم يكن مشروع تحديث الدولة التونسية مجرد نقل للنموذج الفرنسي، كما لم يكن مشروعًا للعودة إلى المؤسسات السابقة على الاستعمار. لقد كان محاولة لإعادة تركيب عناصر من التجربتين.

طالب الإبراهيمي وبومدين: مساران داخل التجربة الجزائرية

في الجزائر جاء أحمد طالب الإبراهيمي من بيئة جمعية العلماء المسلمين ومن إرث والده محمد البشير الإبراهيمي، ولكنه درس الطب في النظام الجامعي الحديث وواصل دراسته ونشاطه في فرنسا.

أما هواري بومدين فقدم مسارًا مختلفًا، إذ مر بالتعليم العربي الإسلامي ثم الزيتونة في تونس والأزهر في القاهرة.

وتكشف المقارنة بينهما داخل التجربة الجزائرية نفسها أن النخبة التي قادت الدولة بعد الثورة لم تكن ذات تكوين ثقافي واحد. فقد التقت فيها روافد الإصلاح الإسلامي والعروبة والحركة الطلابية الحديثة والثورة المسلحة والقومية العربية وتجارب التعليم الفرنسي والمشرقي.

المسعدي والمدرسة الوطنية

من هنا يمكن فهم مشروع محمود المسعدي في التعليم. فهذا الأديب الذي يمثل أحد أهم وجوه الكتابة العربية التونسية الحديثة لم يعتبر استمرار الفرنسية في قطاعات من التعليم تناقضًا آليًا مع بناء الدولة الوطنية.

كانت أولويته تعميم المدرسة وتكوين الإطارات وبناء الجامعة وإدخال المجتمع بسرعة إلى التعليم الحديث. وبالنسبة إلى هذا التصور، كانت الفرنسية قناة معرفية يمكن استعمالها حتى مع إعادة الاعتبار للعربية.

مزالي وإعادة طرح المسألة اللغوية

أما محمد مزالي، وهو بدوره خريج الفلسفة في فرنسا، فقد أصبح أكثر اهتمامًا بضرورة تعديل التوازن بين اللغتين وتعزيز موقع العربية.

ومن هنا لا ينبغي اختزال الاختلاف بين المسعدي ومزالي في مواجهة بسيطة بين «الفرنكوفونية» و«العروبة». لقد كان اختلافًا داخل النخبة الوطنية نفسها حول أفضل طريق لامتلاك الحداثة: هل تمر المرحلة الانتقالية عبر ازدواج لغوي واسع، أم ينبغي تسريع بناء قدرة معرفية عربية حتى لا تتحول الازدواجية إلى تبعية ثقافية واجتماعية دائمة؟

«الفكر» وإنتاج المعرفة بالعربية

تكتسب مجلة «الفكر» أهميتها من هذه الزاوية. فقد حاولت، من خلال استمرارها على مدى ثلاثة عقود، أن تجعل العربية نفسها فضاءً لإنتاج الفكر الحديث، لا مجرد لغة للتراث أو الهوية.

فالتحرر اللغوي لا يتحقق بقرار إداري يغير لغة الوثيقة أو المؤسسة؛ بل يصبح فعليًا عندما تستطيع اللغة إنتاج الفلسفة والنقد والعلوم الإنسانية والأدب الحديث والترجمة والمفاهيم الجديدة.

وهنا تجاوز مشروع المجلة مسألة «التعريب» بمعناها الإداري إلى سؤال أوسع يتعلق بإمكان إنتاج الحداثة الفكرية باللغة العربية.

الجزائر: الجزأرة والتعريب وديمقراطية التعليم

ظهرت المشكلة نفسها في الجزائر، ولكن في سياق تاريخي مختلف. فقد جعل الطابع الاستيطاني للاستعمار الفرنسي وحرب التحرير الطويلة مسألة استعادة الشخصية الوطنية أكثر ارتباطًا بالقطيعة مع النظام الاستعماري.

وعندما تولى أحمد طالب الإبراهيمي وزارة التربية بعد وصول هواري بومدين إلى الحكم سنة 1965، أصبحت الجزأرة والتعريب وديمقراطية التعليم والتكوين العلمي والتقني عناصر مترابطة في مشروع إعادة بناء المجتمع.

لكن طالب الإبراهيمي نفسه يجسد المفارقة التي كانت تواجه هذا المشروع. فهو ابن أحد أبرز رجال الإصلاح العربي الإسلامي، لكنه طبيب تكون في الجامعة الحديثة وعاش تجربة باريس والحركة الطلابية الدولية. ومن ثم لم يكن السؤال بالنسبة إليه رفض المعرفة الحديثة، وإنما كيفية نقلها إلى مجتمع يريد في الوقت نفسه استعادة لغته وشخصيته الثقافية.

وفي هذه النقطة تلتقي التجربتان التونسية والجزائرية رغم اختلافهما. لقد أرادت النخب في البلدين امتلاك الحداثة من دون استمرار التبعية، واستعادة الهوية من دون الانفصال عن المعرفة العلمية العالمية، لكن ترتيب الأولويات ووسائل التنفيذ كانا مختلفين.

رابعًا: من إعلام الثورة إلى إعلام الدولة ـــ الثقافة أداة لبناء المجتمع الجديد

الاستقلال وتغير وظيفة الصحافة

غيّر الاستقلال وظيفة الصحافة تغييرًا عميقًا. ففي المرحلة الاستعمارية كان للصحفي الوطني خصم خارجي واضح نسبيًا، وكانت حرية الصحافة مرتبطة إلى حد كبير بحرية مقاومة النظام الاستعماري.

أما بعد الاستقلال فقد أصبحت الدولة وطنية، وأصبح السؤال أكثر تعقيدًا: ما الوظيفة التي ينبغي أن يؤديها الإعلام في مجتمع خرج حديثًا من الاستعمار؟ وهل يستمر أداةً للتعبئة في خدمة مشروع بناء الدولة، أم يصبح أيضًا فضاءً لمساءلة هذه الدولة ونقد سياساتها؟

الجزائر: من «المجاهد» إلى الصحافة الثقافية بعد الاستقلال

في الجزائر انتقلت «المجاهد» من كونها لسان الثورة إلى جزء من المنظومة الإعلامية للدولة المستقلة، وظهرت أو تطورت منابر أخرى مثل «الثورة الإفريقية» و«نوفمبر» و«المجاهد الثقافي».

وكانت هذه الصحف والمجلات فضاءات لمناقشة الاشتراكية والعروبة والأصالة والحداثة والعالم الثالث ودور الفنان والمثقف في المجتمع الجديد.

وهكذا تغير السؤال الذي تواجهه الصحافة الجزائرية. لم يعد فقط: كيف نحرر الجزائر؟ بل أصبح أيضًا: أي جزائر ينبغي أن تبنيها الثورة بعد أن أصبحت دولة؟

بومدين: السيادة الاقتصادية والثقافية

في عهد بومدين لم يكن الإعلام منفصلًا عن الاقتصاد أو التعليم. فقد ارتبط مشروع الدولة بفكرة أن الاستقلال السياسي يظل ناقصًا إذا لم يتحول إلى سيادة على الموارد والاقتصاد والثقافة والمعرفة.

ومن هنا جاءت سياسات التصنيع والسيطرة الوطنية على القطاعات الاستراتيجية والإصلاح الزراعي والتعريب والجزأرة والتعليم ضمن تصور شامل لبناء الدولة الوطنية، وإن اختلفت نتائج هذه السياسات وحدودها.

طالب الإبراهيمي: من المدرسة إلى الإعلام والثقافة

عندما انتقل طالب الإبراهيمي من وزارة التربية إلى وزارة الإعلام والثقافة كان هذا الانتقال ذا دلالة فكرية ومؤسساتية. فالمدرسة والصحيفة والإذاعة والتلفزيون والكتاب والمسرح والسينما كانت جميعًا، في منطق الدولة الوطنية، أدوات لصناعة المواطن وإعادة بناء المخيال الجماعي بعد الاستعمار.

وبذلك انتقلت معركة تصفية الاستعمار من المؤسسة التعليمية إلى المجال الثقافي بأكمله.

تونس: انتقال المثقفين إلى مؤسسات الدولة

في تونس نجد مسارًا موازيًا، وإن اختلف السياق السياسي. فقد انتقل محمد مزالي من تدريس الفلسفة وتأسيس «الفكر» إلى إدارة مؤسسات الإذاعة والتلفزيون، ثم إلى مسؤوليات التربية والحكومة.

وانتقل محمود المسعدي من الأدب والنقابة والصحافة الثقافية إلى وزارة التربية ثم الثقافة ثم رئاسة مجلس النواب. أما البشير بن سلامة فانتقل من العمل الطويل داخل «الفكر» إلى المسؤولية الوزارية في الثقافة.

وهذه التحولات تعني أن رجال الثقافة لم يبقوا خارج الدولة يكتبون عنها، بل أصبح بعضهم مسؤولًا عن المؤسسات التي تحدد سياسة التعليم والثقافة والإعلام. لقد انتقلوا، بتعبير آخر، من إنتاج الأفكار إلى إنتاج المؤسسات.

المثقف والدولة: من الشراكة إلى التوتر

خلق هذا الانتقال تناقضًا جديدًا. فالمثقف الذي كان يطالب الدولة الاستعمارية بالحرية أصبح يعمل داخل دولة وطنية مركزية لها أولوياتها السياسية ومصالحها ومؤسساتها.

ومن هنا بدأ السؤال عن استقلال المثقف والإعلام عن السلطة الوطنية يحل تدريجيًا محل السؤال القديم عن استقلالهما عن السلطة الاستعمارية.

فالدولة أتاحت للمثقف إمكان تحويل بعض أفكاره إلى مدارس وجامعات ومؤسسات ثقافية وسياسات عامة، لكنها أخضعته في الوقت نفسه لمنطق السلطة والقرار السياسي.

الإذاعة والتلفزيون وصعود الثقافة الجماهيرية

تغيرت طبيعة وسائل الإعلام نفسها. فالصحيفة والمجلة كانتا من المؤسسات الأساسية للمجال العام في العقود الأولى من القرن، لكن الإذاعة ثم التلفزيون غيرا حجم الجمهور وطبيعة التأثير.

لم يعد الخطاب الثقافي موجهًا أساسًا إلى قارئ متعلم في المدن؛ أصبح بإمكان الدولة الوصول يوميًا إلى قطاعات اجتماعية واسعة بالصوت والصورة.

وهنا اكتسبت تجربة مزالي في الإذاعة والتلفزيون وتجربة طالب الإبراهيمي في وزارة الإعلام والثقافة أهمية تتجاوز سيرتيهما الشخصية. فقد كانا يتعاملان مع لحظة تاريخية تنتقل فيها الثقافة من فضاء النخبة المطبوعة إلى الثقافة الجماهيرية الوطنية.

»الفكر» واستمرار وظيفة المجلة الثقافية

وفي الوقت نفسه ظلت المجلة الثقافية تؤدي وظيفة مختلفة. فقد استمرت «الفكر» إلى سنة 1986، وظلت فضاءً للأدب والنقد والفلسفة والتعريب وقضايا الثقافة العربية.

وكان البشير بن سلامة أحد أبرز من حافظوا على استمرارية هذا المشروع، حتى عندما أصبحت مسؤوليات مزالي في الدولة تحول دون حضوره التحريري القديم.

ومن المفيد هنا ملاحظة أن بعض رجال هذا الجيل وصلوا في مطلع الثمانينيات إلى مواقع متقدمة جدًا داخل الدولة التونسية: مزالي في رئاسة الحكومة، والمسعدي في رئاسة مجلس النواب، وبن سلامة في وزارة الثقافة. وهكذا وصلت إلى مؤسسات الحكم شخصيات بدأت مساراتها في المدرسة والفلسفة والأدب والمجلة والصحافة.

غير أن وصول المثقف إلى الدولة لم يلغ التناقض بين الثقافة والسلطة؛ بل أعاد صياغته.

خامسًا: من المجال المغاربي المشترك إلى الدول الوطنية ـــ التحديث وحدود تصفية الاستعمار

عندما سبقت الشبكات الثقافية الحدود السياسية

تكشف المقارنة بين الخمسينيات والثمانينيات مفارقة تاريخية لافتة. ففي مرحلة الاستعمار كان الصحفي والطالب والكاتب يتحرك داخل فضاء مغاربي واسع نسبيًا. كان الجزائري يدرس في الزيتونة، ويكتب في الصحيفة التونسية، ويجتمع بالتونسي والمغربي في باريس، ويتابع صحافة القاهرة وبيروت، بينما تصل الصحف التونسية إلى الجزائر رغم رقابة الإدارة الاستعمارية.

وكان أحمد توفيق المدني نموذجًا مبكرًا لهذه الحركة؛ فقد تحول انتقاله من تونس إلى الجزائر إلى جسر ثقافي وصحفي بين النخب في البلدين، وشارك في الصحافة الجزائرية الإصلاحية وكتب في القضايا المغاربية والدولية. كما تظهر الدراسات أن انتقال الصحف والأشخاص بين تونس والجزائر كان من قنوات انتشار الأفكار الوطنية والإصلاحية.

الدولة الوطنية وإعادة تنظيم المجال الثقافي

أما بعد الاستقلال فقد أصبحت المؤسسات أكثر وطنية. ظهرت وزارات التربية والثقافة والإعلام، والإذاعات والتلفزيونات الوطنية، والمناهج المدرسية والجامعات الوطنية، وأصبحت الصحافة تعمل أكثر فأكثر داخل الإطار السياسي والمؤسساتي لكل دولة.

وبذلك ساهم نجاح بناء الدولة الوطنية، بصورة مفارقة، في إضعاف بعض الشبكات المغاربية غير الرسمية التي كانت قد ازدهرت في مرحلة التحرر.

لكن هذه الشبكات لم تختف تمامًا. واستمرار مجلة «الفكر» حتى منتصف الثمانينيات، وحضور القضايا والكتاب الجزائريين والعرب فيها، مثال على بقاء فضاء ثقافي يتجاوز الحدود السياسية.

اللغة الفرنسية بعد الاستعمار: من أداة للهيمنة إلى موضوع للصراع

كما أن الاستقلال لم يؤد إلى اختفاء الفرنسية من المجال الثقافي والإعلامي والتعليمي.

وهنا ينبغي التمييز بين اللغة بوصفها جزءًا من النظام الاستعماري وبين الاستخدامات الجديدة التي أعطاها لها كتاب ومثقفون بعد الاستقلال. فقد استعملها بعض الكتاب الجزائريين للتعبير عن التجربة الوطنية نفسها وانتقاد الاستعمار، كما استمرت في قطاعات من التعليم والإدارة والصحافة.

وفي تونس كان المسعدي، أحد أبرز كتاب العربية، يرى في الفرنسية قناة مهمة للمعرفة الحديثة، بينما كان مزالي، وهو نفسه خريج الفلسفة الفرنسية، أكثر اهتمامًا بتوسيع حضور العربية.

وتكشف هذه المفارقة أن المشكلة الحقيقية لم تكن مجرد اختيار إحدى اللغتين وإلغاء الأخرى، بل تحديد العلاقة بين اللغة والسيادة وإنتاج المعرفة.

من التعريب إلى السيادة المعرفية

فالتحرر الثقافي لا يكتمل بمجرد تغيير لغة الإدارة. والسؤال الأعمق هو ما إذا كان المجتمع قادرًا على إنتاج العلم والفلسفة والأدب والبحث والتكنولوجيا بلغته، مع امتلاك اللغات العالمية في الوقت نفسه.

ومن هنا يصبح التعريب جزءًا من قضية أكبر هي السيادة المعرفية.

وقد واجهت الجزائر وتونس هذه المشكلة بطرائق مختلفة. لكنهما اصطدمتا بالسؤال نفسه: كيف يمكن استعادة اللغة الوطنية من دون خسارة قنوات الوصول إلى المعرفة الحديثة؟

الاقتصاد والثقافة: وجهان لمشكلة التبعية

وينطبق السؤال نفسه على الاقتصاد. ففي الجزائر ربط المشروع البومديني بين التحرر السياسي والسيادة الاقتصادية والتصنيع، وفي تونس ارتبط تحديث التعليم ببناء الإدارة والاقتصاد والمجتمع الحديث.

وفي الحالتين ظهر أن تحرير الأرض لا يكفي إذا ظلت البنية الاقتصادية والمعرفية تعتمد بصورة كبيرة على الخارج.

ومن هنا يمكن فهم المرحلة كلها باعتبارها انتقالًا عبر مستويات مترابطة من التحرر. بدأ الأمر باستعادة السيادة السياسية، ثم انتقل إلى إعادة بناء المؤسسات والاقتصاد والتعليم والثقافة، قبل أن يطرح السؤال الأصعب المتعلق بامتلاك القدرة على إنتاج المعرفة والتكنولوجيا والثقافة الحديثة بصورة مستقلة ومتفاعلة في الوقت نفسه مع العالم.

الأفكار تسبق السياسات

وهنا يعود دور الصحافة إلى قلب التحليل. فما تحول بعد الاستقلال إلى سياسات تعليمية وثقافية واقتصادية كان قد بدأ قبل ذلك بسنوات طويلة على صفحات الصحف والمجلات.

قبل أن يصبح التعريب قرارًا وزاريًا كان نقاشًا بين الكتاب. وقبل أن تصبح الوحدة المغاربية مشروعًا دبلوماسيًا كانت ممارسة يومية بين صحفيين وطلبة ومثقفين يتنقلون بين تونس والجزائر وباريس والقاهرة. وقبل أن تصبح الثقافة وزارة كانت مجلة وجمعية ونواديًا ومدرسة وصحيفة.

من تحرير الكلمة إلى تحرير الدولة والمعرفة

الصحافة باعتبارها فاعلًا في التاريخ

تسمح إعادة بناء هذه المسارات بتقديم قراءة مختلفة لتاريخ تونس والجزائر الحديث. فهذا التاريخ لم يبدأ بالدولة الوطنية، ولم تصنعه الدولة وحدها. لقد سبقها فضاء اجتماعي وثقافي كثيف تكون من العلماء والمصلحين والطلبة والمدرسين والمحامين والكتاب والشعراء والصحفيين.

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين كانت الصحافة إحدى المؤسسات المركزية التي صنعت هذا الفضاء. ومنها خرجت أو عبرت شخصيات تنتمي في الوقت نفسه إلى الفكر والأدب والسياسة والإصلاح.

ويكشف مسار عبد العزيز الثعالبي المبكر أهمية الصحافة في تحول الإصلاح إلى حركة وطنية، بينما يمثل أحمد توفيق المدني واحدًا من أوضح نماذج التداخل التونسي الجزائري؛ فقد تشكل في تونس وشارك في حياتها السياسية والصحفية، ثم حمل تجربته إلى الجزائر وأسهم في صحافتها الإصلاحية والحركة الثقافية وجمعية العلماء. وتؤكد الدراسات التاريخية حضوره البارز في «الشهاب» و«البصائر» وكتاباته المتعلقة بالشؤون المغاربية والدولية.

أما مفدي زكرياء، الذي ارتبط جزء مهم من تكوينه بتونس والزيتونة، فقد حمل هذا التكوين إلى الحركة الوطنية الجزائرية ثم إلى الثورة، وجمع بين الشعر والنشاط الوطني والصحافة. وتوثق الدراسات نشاطه المبكر في تحرير «الحياة» ومساهماته في الصحافة، بما يوضح أن صورته بوصفه شاعرًا للثورة لا تستنفد أبعاد تجربته الفكرية والإعلامية.

المجال الفكري المغاربي العابر للحدود

ولم تكن هذه الحالات استثناءات متناثرة، بل كانت مؤشرات إلى وجود ما يمكن تسميته مجالًا فكريًا وإعلاميًا مغاربيًا عابرًا للحدود.

وكانت تونس والجزائر وباريس والقاهرة محطات رئيسية داخله، بينما كانت العربية والفرنسية من أهم لغات تداول أفكاره.

ثم جاءت الخمسينيات لتدفع هذا المجال إلى مرحلة جديدة. أصبحت «الصباح» التونسية منبرًا للقضايا الوطنية والمغاربية، وعمل داخلها صحفيون جزائريون، بينما تحولت تونس إلى مركز مهم للإعلام الثوري الجزائري. وفي اللحظة نفسها تقريبًا ظهرت «الفكر»، التي حملت المعركة من الخبر السياسي اليومي إلى سؤال الثقافة التي ينبغي أن يبنيها الاستقلال.

من الصحافة والحركة الطلابية إلى مؤسسات الدولة

بعد الاستقلال انتقل عدد من رجال هذا العالم من الصحافة والثقافة والحركة الطلابية إلى الدولة. أصبح أحمد طالب الإبراهيمي مسؤولًا عن التربية ثم الإعلام والثقافة في الجزائر في عهد هواري بومدين، وانتقل محمود المسعدي ومحمد مزالي والبشير بن سلامة في تونس من الأدب والفلسفة والمجلة والتعليم إلى مواقع المسؤولية في الدولة.

وهكذا تحولت أفكار كانت تتداولها الصحف والمجلات إلى سياسات عامة في المدرسة والجامعة والثقافة والإعلام.

لكن هذه النقلة لم تكن نهاية معركة التحرر، وإنما بداية مرحلة جديدة منها. فقد ظهر أن تصفية الاستعمار لا تتحقق بمجرد رحيل الإدارة الأجنبية، مثلما لا تتحقق بمجرد تعريب الإدارة أو السيطرة الوطنية على قطاع اقتصادي. إنها عملية أطول تتعلق بقدرة المجتمع على امتلاك أدوات المعرفة الحديثة وإنتاجها وإعادة صياغتها انطلاقًا من حاجاته وتاريخه.

جيل متعدد التكوين ومشكلة امتلاك الحداثة

وهنا تلتقي، رغم اختلاف السياقات والاختيارات، تجارب بومدين وطالب الإبراهيمي في الجزائر، وبورقيبة والمسعدي ومزالي وبن سلامة في تونس. فقد واجهت هذه التجارب، بصيغ مختلفة،

سؤالًا مركزيًا: كيف يمكن بناء دولة حديثة بأدوات كان جزء منها قد وصل عبر التجربة الاستعمارية أو عبر الاحتكاك بأوروبا، من دون إعادة إنتاج التبعية للاستعمار؟

وكان تكوين هذا الجيل نفسه تعبيرًا عن المشكلة والحل في آن واحد. فمن الصادقية والزيتونة وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى السوربون والجامعات الفرنسية والأزهر والحركات الطلابية، تشكلت نخبة متعددة الروافد عرفت التراث العربي الإسلامي كما عرفت الفكر الأوروبي الحديث، وعاشت التوتر بينهما لا باعتباره مسألة نظرية فقط، بل باعتباره تجربة شخصية وسياسية.

ولذلك لم تكن المعركة الحقيقية بين «الأصالة» و«الحداثة» بمعناهما المبسط. لقد كانت معركة امتلاك الحداثة من دون الخضوع لهيمنتها الاستعمارية، واستعادة الهوية من دون تحويلها إلى انغلاق عن العالم.

من تحرير الوطن إلى السيادة الثقافية والمعرفية

ومن هذه الزاوية يمكن إعادة تعريف الصحافة نفسها في تاريخ المغرب العربي. فهي لم تكن مجرد شاهد يسجل أحداث الحركة الوطنية، بل كانت واحدة من المؤسسات التي صنعت الحركة الوطنية. ولم تكن المجلة الثقافية مرآة للفكر، بل كانت مؤسسة لإنتاجه. ولم يكن الصحفي ناقلًا لما يفعله السياسي، بل كان في حالات كثيرة هو نفسه المصلح والمناضل والمؤرخ والأديب، ثم أصبح بعد الاستقلال الوزير والمسؤول وصانع السياسة الثقافية.

وهكذا يمتد خط تاريخي طويل من الصحافة الإصلاحية والوطنية في مطلع القرن العشرين، عبر الثعالبي وأحمد توفيق المدني ومفدي زكرياء وجيلهم، إلى «الصباح» و«الفكر» و«المجاهد»، ثم إلى طالب الإبراهيمي ومزالي والمسعدي وبن سلامة ومؤسسات الإعلام والتعليم والثقافة بعد الاستقلال.

إنه انتقال من تحرير الكلمة إلى تحرير الوطن، ومن تحرير الوطن إلى محاولة تحرير الاقتصاد والثقافة والمعرفة.

ومن هنا تكتسب التجربتان التونسية والجزائرية معناهما الأوسع في تاريخ الأفكار: فالمشكلة التي واجهها جيل التحرر لم تكن فقط كيفية إخراج المستعمر من البلاد، بل كيفية منع المجتمع المستقل من أن يبقى تابعًا للنظام الاقتصادي والثقافي والمعرفي الذي تركه الاستعمار وراءه.

وهو السؤال الذي يجعل تاريخ الصحافة والتعليم والثقافة في تونس والجزائر جزءًا لا يتجزأ من تاريخ التحرر الوطني نفسه.



ندوة قسنطينة الجزائر16و17 ديسمبر2015

الصحافة التونسية وحركة التحرر الوطني الجزائرية:

صحيفة الصباح مثالا

من حسن حظنا جميعا أن تقترن ندوتنا العلمية العربية والدولية عن " دور الإعلام العربي في دعم حركة التحرر الوطني الجزائرية" بالتظاهرات التي تحييها مؤسسات الدولة الجزائرية المستقلة بمناسبة مرور61 عاما عن استقلال الجزائر وبفعاليات " قسنطينة عاصمة الثقافة العربية " . ومن حسن حظنا أن يكون لقاؤنا العلمي في مقر الجامعة التي تحمل اسم زعيم الثوار الوطنيين الجزائريين الأوائل الأمير عبد القادر نتطلع الى المستقبل مع شبابها وطلبتها وباحثيها واطارها العلمي والبيداغوجي .

المقدمة

شرفني القائمون على هذا الحدث العلمي والوطني العربي والدولي فطلبوا مني بصفتي الجامعية و الإعلامية ـ أن أقدم مداخلة عن مساهمة الصحافة التونسية وتحديدا صحيفة الصباح اليومية في دعم الحركة الوطنية الجزائرية منذ تأسيسها في فيفري 1951 إلى استقلال الجزائر في 1962.

وقد يضيق المقام لتقديم قراءة علمية حول هذا المحور لأنها تستوجب رسالة جامعية من مئات الصفحات مصحوبة بدراسة مونوغرافية وقراءات إحصائية وتحاليل تأليفية للمضمون وللخطاب الاعلامي الوطني الداعم لحركة التحرر الجزائرية وعمل تقييمي مقارن .

لكننا سنهتم في هذا العرض الخاص بهذا الملتقى التاريخي خاصة بتقديم الاستنتاجات الكبرى حول مواكبة صحيفة الصباح التونسية لجهاد الوطنيين الجزائريين ضد الاحتلال مع التوقف عند تقاطع مساري الحركة الوطنية في تونس والجزائر من جهة وفي كامل شمال افريقيا ـ من مصر الى المملكة المغربية ـ وفي الوطن العربي الكبير عموما .

I. انخراط الصحافة التونسية في الحركة الوطنية الجزائرية والمغاربية :

بعد اعادة التنقيب والتحقيق في مجلدات صحيفة الصباح منذ عددها الاول في 1 فيفري 1951 وحتى اعلان استقلال الجزائر في 5 جولية 1962 أجدني أتساءل معكم حول الإشكالية التي بدأت بها البحث قبل أسابيع من كتابة هذا البحث : اذا كانت الصحافة العربية والعالمية لعبت دورا في مناصرة قضية تحرير الجزائر فماذا كانت إسهامات صحيفة الصباح التونسية خاصة والصحافة الوطنية التونسية عامة؟

وقد أفاجئكم عندما أعلن لكم أن نتيجة تحقيقي التاريخي والصحفي كانت أن "مضمون الصباح والصحافة التونسية يكشف أنهما لم يدعما نضال الشعب الجزائري من أجل التحرر الوطني بل كانا جزءا منه نتيجة لانخراط الاعلاميين الوطنيين مبكرا في النضال الوطني ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر والمغرب وتونس والاحتلال الايطالي لليبيا".

كيف ؟

أجل إن فحوى الصحافة الوطنية التونسية ـ وخاصة الصباح ـ يكشف أن الأمر لم يكن يتعلق ب" دعم ومساندة لقضية طرف لطرف آخر" بل بانخراطا كاملا ولا مشروطا من الداخل في قضية ينتمي اليها المثقون والاعلاميون وكتاب الاعمدة والافتتاحيات : النضال من اجل تحرير الجزائرباعتبارها جزءا لا يتجزء من مسار حركة التحرر الوطني المغاربية . لقد ساد خطاب " الانتماء" للقضية على منطق " المساندة للآخر".

إن الدراسة المضمونية لما كانت تنشره الصباح والصحافة الوطنية التونسية تؤكد أن الامر لم يكن يتعلق بالنسبة للاقلام التي كانت تكتب فيها " دعما لقضية أجنبية " بل " انخراطا في قضية نفس الشعب ونفس الامة ".

مقالات الصباح كانت تبين أن " الانتماء" لحركة التحرر الوطني في بلدان شمال افريقيا هو انتماء لفكر شاعر الثورة الجزائرية والثورات المغاربية في المؤتمر الرابع لجمعية طبلة شمال افريقيا المسلمين عام 1934 في مقر " الخلدونية " جوار جامعة الزيتونة :" أقسم بواحدانية الله أني أومن بوحدانية شمال إفريقيا وأعمل لها ما دام فيّ قلب خافق ودم دافق ونفس عالق ".

لم تكن أدبيات الصباح تتحدث عن " ثورة بلد أجنبي أو شقيق " بل عن نفس مسار الثورة التحررية التي كان من أبرز " مفكريها " علماء تيار النهضة والاصلاح من الشيخ سالم بوحاجب (1924/1827) الى تلامذته خير الدين ومحمد بيرم الخامس والجنرال حسين و عبد العزيز الثعالبي والطاهر ثم الفاضل بن عاشور و خريجي جامع الزيتونة و معهد الصادقية من جمعية العلماء المسلمين الى قادة " جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين " وصولا الى " شاعر الثورة الوطنية المغاربية الكبرى" مفدي زكرياء ورفاقه في الزيتونة والخلدونية من ابي القاسم الشابي الى جماعة تحت السور والطلبة التونسيين والجزائريين .

لذلك فلم يكن هناك مجال للحديث عن " مساندة ودعم للجار " بل بالانتماء الى نفس المشروع قولا وفعلا ورصد كل الامكانيات الذاتية والمشتركة لفائدته سواء كانت مادية واومعنوية أواعلامية .

وفي هذا السياق نفهم لماذا اختارت صحيفة الصباح منذ عددها الاول في 1951 شعار" صوت المغرب العربي الكبير" وليس مجرد صوت الحركة الوطنية التونسية أو صوت الحزب الحر الدستوري الذي ساهم بعض كبار زعمائه في تأسيسها وفي أسرة تحريرها .

وفي هذا السياق نفهم لماذا اختار مؤسس الصباح ـ المناضل الوطني الحبيب شيخ روحه ـ ورفاقه منذ البدء أن تكون أسرة تحريرها تونسية جزائرية وأن يكون من بين أبرز أقلامها وطنيون جزائريون من الحجم الكبير بينهم محمد الميلي الابراهيمي نجل الزعيم الوطني الشيخ الميلي الابراهيمي العضد الايمن للزعيم عبد الحميد بن باديس أصيل هذه الربوع من شرق الجزائر الحبيبة .

II. انخراط في دعم حركات التحرر الفلسطينية والعربية والعالمية :

وينبغي أن نسجل هنا أن " انخراط " الإعلام التونسي الكامل وجريدة الصباح في مسار النضال الوطني من أجل تحرير الجزائر والمغرب وبقية المستعمرات في الوطن العربي الاسلامي الكبير وفي افريقيا واسيا اقتران بأمرين :

- انخراطا مماثلا في دعم قضية النضال ضد الاحتلال الاسرائيلي . لذلك وقع تخصيص صفحة دائمة لفلسطين وصفحات وأركان دائمة للمغرب العربي. في نفس الوقت كانت الصباح تتابع نقلا عن مراسليها وكالات الانباء العالمية وما تبثه الاذاعات الدولية والعربية عن تحركات الزعماء الوطنيين الافارقة وفي بلدان عدم الانحياز التي ربط الزعيمان الحبيب بورقيبة وجمال عبد الناصر علاقات متطورة مبكرة بها.

وقد سبق لي أن أجريت في 1995 حوار صحفيا للصباح مع المناضل الوطني من المغرب الاقصى الشقيق عبد الكريم غلاب ـ الأمين العام لمؤتمر المغرب العربي الذي عقد سنة 1947 وأنشأ " مكتب المغرب العربي " الذي تزعم الكفاح من اجل استقلال الجزائر والمغرب وتونس ـ كشف لي فيه أن " الصباح كانت توزع سرا في المغرب والجزائر لأنها كانت صوت الكفاح من أجل فلسطين ومنبرا موحدا للحركة الوطنية في كامل شمال افريقيا .

وأكد لي المناضل والاعلامي عبد الكريم غلا ب أن" شعبية الصباح في الدول المغاربية تزايدت بعد اغتيال الزعيم الوطني فرحات حشاد في 5 ديسمبر 1952 وتنظيم مظاهرات واضرابات عامة احتجاجية في البلدان الثلاثة غطتها الصباح مثلما تابعت تقديم تغطية مفصلة لأخبارالثورة المسلحة في تونس والجزائر والمغرب حتى استقلال البلدان الثلاثة ".

- بعد استقلال تونس والمغرب في 1956 لم ينقص اهتمام الصباح بالقضية الوطنية الجزائرية بل تضاعف واصبح يشمل يوميا التحركات الميدانية للثوار في الجبال والمدن والتحركات السياسية داخل الجزائر وعربيا ودوليا من أجل اجبار فرنسا على الاعتراف باستقلال الجزائر والتراجع عن تصنيف الجزائر "جزءا من فرنسا ".
- رغم نقص عدد صفحات الجريدة ـ التي بدأت ب 4 وتطورت الى 8 صفحات من الحجم الكبير- وبالرغم من اهمية المواضيح الداخلية بعد الاستقلال وخلال "مرحلة استبدال النظام الملكي بنظام جمهوري " ، فقد كانت تخصص عناوينها الرئيسية وما لايقل عن صفحة داخلية لاخبار الثورة الشعبية (مظاهرات واضرابات داخل الجزائر وخارجها) والتحركات المسلحة للمجاهدين داخل الجزائر وانطلاقا من الاراضي التونسي والمغربية ، والتحركات السياسية والديبلوماسية .
- بالرغم من التركيز الواضح على ابراز مطالب حركات التحررالوطني في الجزائروفلسطين والبلدان المغاربية والعربية برزت في صحيفة الصباح مبكرا مقالات تربط بين مسار تلك الحركات والصراع الدولي بين المعسكرين الشرقي والغربي / الاشتراكي والراسمالي / مع الانتماء الى " معسكر عدم الانحياز" . كما برزت مبكرا مضامين توضح أن انهاء الاستعمار ليس مجرد اخراج العسكري الاجنبي والمقيم العام الفرنسي بل اعادة بناء دول وطنية واقتصاد وطني ومؤسسات مجتمع متقدم وحديث .

III. إطار جيو استراتيجي جديد :

وحتى تتجاوز مثل هذه الورقة مرحلة التنويه الوجداني بالحركة الوطنية في بلدان شمال إفريقيا وبالخطب " العاطفية " المعارضة للاستعمار" الأجنبي الذي دمر جوامع الجزائر ومعالمها العربية الإسلامية" لابد من أن نسجل ما يلي :

- أولا : إعادة قراءة الرصيد الثري لصحيفة الصباح تدفع نحو تأكيد انخراط عموم المفكرين والمثقفين والوطنيين التونسيين في مسار النضال ضد احتلال فرنسا الاستعمارية للجزائر منذ مرحلة ما قبل احتلال تونس في 1881 .

وتؤكد ذلك المقالات المنشورة في الصباح عن الدور الوطني للصحف والكتب التي نشرت في تونس منذ مسار الإصلاحات التي سبقت انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ثم في عهد الاستعمار المباشر قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها.

في هذا السياق يمكن أن نسجل تنويه مقالات في الصباح بدور الصحف الوطنية والمؤلفات التي كان الشيخ عبد العزيز الثعالبي من روادها منذ موفى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين قبل تاسيس الحزب الحر الدستوري الذي قاد الحركة الوطنية التونسية مطلع 1920.

كما يمكن ان سنجل في نفس السياق دور" علماء وأدباء ومناضلين رواد " مثل الشاعر الوطني الجزائري /المغاربي "المفدي زكرياء" الذي ولد عام 1908 في منطقة غرداية بوادي ميزاب الجزائري ، الذي درس في تونس في العشرينات والثلاثينات وبها توفي عام 1977 وكان يسمى "شاعر وحدة المغرب العربي".
و تبرز الصباح مسيرة المجاهد والشاعر مفدي زكرياء الطي التحق مفدي زكرياء الذي حل بتونس ضمن البعثة العلمية الميزابية، وزاول تعليمه بالمدرسة الخلدونية وتخرج سنة 1926 من جامع الزيتونة العريق حيث تعرّف على أدباء وشعراء ربطته بهم علاقة قوية ومنهم التونسي أبو القاسم الشابي والجزائري رمضان حمود.

- ثانيا : تكشف المقالات المنشورة في الصباح وفي غيرها من الصحف الوطنية أن دعم الثورة الجزائرية لمرحلة ما عبد 1 نوفمبر 1954 كان امتدادا لمسار طويل من النضال الوطني المشترك بين زعماء الحركة الوطنية في الجزائر والمغرب وتونس وليبيا.

بل لقد كان أبرز مؤسسي الصحافة والحركات الوطنية في تونس منذ أواخر القرن ال19 ومطلع القرن ال20 من أصول جزائرية مثل الشيخ عبد العزيز الثعالبي وأحمد توفيق المدني أو من أصول ليبية مثل الزعيم الحبيب بورقيبة أصيل " حي الطرابلسية " في المنستير.
لذلك رحب مؤسسو الصباح وأعلامها التونسيون بأن يكون في أسرة تحرير الصحيفة مناضلون وطنيون جزائريون مثل محمد الميلي الابراهيمي وعبد الله الشريط وشقيقه عبد الرحمان الشريط...وابن عمهما الازهاري الشريط الذي عين بعد استقلال تونس اول رئيس لتحرير وكالة تونس افريقيا للانباء ثم في ادارة التلفزة ...والاعلامي والكاتب الطاهر وطار الذي أصبح بعد الاستقلال اعلاميا كبيرا في الجزائر.

- ثالثا: من أهم القضايا التي تستحق دراسات جامعية معمقة في خطاب الحركات الوطنية التونسية والجزائرية والمغاربية عموما اعداد قراءات للمصطلحات والمفاهيم التي كانت تروج في الصباح وبقية وسائل الاعلام التونسية والمغاربية من قبل الكتاب والزعماء الوطنيين والتي لم تكن تعترف ب" الحدود الاستعمارية " بل تنظر الى دول شمال افريقيا باعتبارها وحدة غير مجزأة .
- رابعا: تكشف مقالات الصباح والصحافة الوطنية التونسية في الخمسينات ـ وخاصة في الاذاعة الوطنية التونسية والبرنامج المسائي اليومي الذي كانت تبث عن الجزائر ـ وعيا بعمق التحولات الجيو استراتيجية التي شهدها العالم بعد الحرب العالمية الثانية وتغيير ميزان القوى الدولي لغير صالح القوى الاستعمارية التقليدية ـ مثل فرنسا وبريطانيا ـ مقابل ضغوطات القوى " الصاعدة " وبينها الولايات المتحدة عبر الامم المتحدة واليات اخرى لدفع باريس وبريطانيا للاعتراف ب"حقوق شعوب مستعمراتها في تقرير المصير".

ويكشف مضمون التحاليل السياسية في الصباح مثلا استيعابا لهذا المعطى الدولي الاقليمي الجديد.
وتحقق نتيجة ذلك استبدال شعارات " الاصلاحات الدستورية" و"اصلاح التعليم " و" المساواة بالمستمعرين "..بشعار الاستقلال .

- رابعا :في هذا المناخ برز مفهوم " الدولة الوطنية الحديثة " في تونس والجزائر والمغرب وليبيا وان حاول الوطنيون الحداثيون " تمريره" في الصباح وفي غيرها من وسائل الاعلام ضمن " الانتماء الى المغرب الكبير".

ولئن دفع الاجماع على انهاء الاستعمار نحو " التوافق" فان مقالات الصباح ابرزت مبكرا تباينات في مفهوم الدولة الوطنية والانتماء للمغرب الكبير والوطن العربي والامة الاسلامية وهو ما سوف ينكس بسرعة على الاختلافات التي ستبرز لاحقا .

- خامسا : تزايد التركيز على متابعة تحركات الوطنيين الجزائريين منذ اعلان انطلاق الثورة المسلحة في نوفمبر1954 وبعد حادثة اختطاف الزعماء الوطنيي العائدين من المغرب ثم بعد حوادث ساقية سيدي يوسف في فيفري 1958 والتي اقترنت فيها دماء المدنيين والعسكريين والشعبين الجزائري والتونسي.
- سادسا : كانت صحيفة الصباح منذ عددها الاول ترفع شعار " صوت الحركة الوطنية في المغرب العربي" . لكنها تميزت بالمستوى الرفيع للكتاب والاعلاميين والسياسيين والمناضلين التي يكتبون فيها عن الثورة الجزائرية و حركات التحرر الوطني المغاربية والعربية والدولية .

وكان محمد الميلي الابراهيمي رئيس تحرير ثان في صحيفة الصباح حتى تعيينه وزيرا في حكومة المفاوضات الجزائرية ،حكومة عبد الرحمان فارس . وكان مع الميلي عشرات الاقلام الجزائرية بينهم 15 صحفيا متفرغا من ابرزهم الطاهر وطار وعبد الله الشريط وعبد الرحمان الشريط والازهار الشريط ..

وقد عين محمد الميلي لاحقا سفيرا للجزائر في تونس فوزيرا للتربية ثم مديراعام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الالكسو.

وقد ساهم انضمام مثقفين واعلاميين جزائريين الى اسرة " الصباح" في مواكبة الصحيفة لتفاصيل التحركات الميدانية والسياسية للوطنيين الجزائريين في الجزائر وتلك التي تنظم انطلاقا من الاراضي التونسية .

وكانت الصحيفة تبرز " وحدة المصير ووحدة الانتماء الى نفس القضية " حيث كان يتحرك عدد من قادة جبهة التحرير الوطني والثوار الجزائريين من تونس بدعم من الوطنيين التونسيين والشعب التونسي مما تسبب في خلافات فرنسية مع بورقيبة ورفاقه تطور الى حد جريمة قصف القوات الفرنسية لقرية سيدي يوسف الحدودية احدى قواعد العبور من تونس الى الجزائر من قبل المجاهدين الجزائريين في فيفري 1958.

وكانت المرحلة الحاسمة التي واكبتها الصباح بكثافة تلك التي

تراوحت بين تصعيد الكفاح المسلح ضد المستعمر الفرنسي وبروز بوادر التفاوض بين قيادات وطنية جزائرية منذ تشكيل حكومة بالمنفى في19 سبتمبر 1958 واعلان المجلس الوطنى للثورة الجزائرية المنعقد فى طرابلس مطلع سنة 1960 " إنزال الشعب الجزائري إلى الشارع لدعم الثورة المسلحة".

كما واكبت الصباح تحركات جبهة التحرير الوطني ونجاحها في تنظيم مسيرات شعبية ضخمة في سائر المدن والقرى والأرياف الجزائرية وبينها :مظاهرات 11 ديسمبر 1960 في الجزائر العاصمة، ومظاهرات17 أكتوبر 1961 في باريس ...التي مهدت للتوقيع على اتفاقيات ايفيان في18 مارس 1962 و وقف إطلاق النار ابتداء من منتصف نهار 19 مارس 1962.

وبعد استقلال الجزائر تواصل تركيز الصباح على مراحل مرحلة بناء الدولة الوطنية مع اعادة التأكيد على المبادئ التي ناضل من أجلها الوطنيون في "شمال افريقيا" وتعاهدوا على توحيدها في مكتب المغرب العربي بالقاهرة وفروعه في دمشق وبرلين وفرنسا ثم في مؤتمر طنجة 1958.

كمال بن يونس

(* مؤرخ واعلامي تونسي

*** استاذ في العلاقات الدولية والاعلام**

***رئيس تحرير أول في صحيفة الصباح ،**

وصحفي في مؤسسة دار الصباح منذ 1988

- **رئيس منتدى ابن رشد المغاربي الدولي للدراسات**